القسم الثاني

في الوسط

وسط الامة

قد تقدم لنا اننا ذكرنا الطبقة العليا من الامة المصرية . وهم الذين يأتي لهم رزقهم عفواً من اطيانهم او من مرتباتهم او من اوقاف ابائهم ومتروكات مورثيهم . وبقي علينا ان نذكر اواسط الامة المصرية وهم الذين يشتغلون لنفع الامة بالاعمال كالتجارة والزراعة والصناعة . كما ان منهم من يشتغل بالعلم والتأليف والاستخدام وغير ذلك . وهؤلاء في الحقيقة زهرة الامة وزينتها وانما توزن بهم لانهم اذا حدث في الامة نجاح فانما يكون منهم . وهم المعول عليهم في الحقيقة لارتقاء الامة وتهذيبها وتعليمها . اذ هم كالاعضاء العاملة في الجسم . وهم الذين يسعون لاكتساب الفضائل فان ظهر نجاح في الطبقة السفلى فبإنهاضهم . وان ظهر تهذيب في الاخلاق من الطبقة المثرية فباجتذابهم لانهم هم الوسط بين الطبقتين تستفيد كل طبقة منهم وفي الحديث الشريف "خير الامور اوساطها" لانهم خلصوا من الافراط والتفريط . فليس فيهم خمول الطبقة العليا . ولا جهل الطبقة السفلى . فان حلّ في هذه الطبقة تقصير فقد خسرت الامة واصبحت لا نجاح لها . وليس في قوة الطبقة العليا ان تخطو خطو الطبقة الوسطى فتهذب الطبقة الدنيا . ومنزلة الوسط

في الامة منزلة المهيمن على الطبقتين . ولذلك كثيرًا ما ارسل الله الرسل الذين جعلهم اعلام الهدى للخلق من الطبقة الوسطى . ففيهم يمكن عقد الاخاء وهو اصل التعاون في جميع الاعمال الدنيويَّة والاخرويَّة . لان الحسد فيهم اقل منهُ في الطبقة العليا . وكفى انهُ لم يقم عالم متشرع ولا قاضٍ قانوني ولا محامٍ بارع ولا مهندس رياضي ولا فقيه ديني ولا ولا . إلاَّ كان من اواسط الامة الذين جمعتهم روابط العصبيَّة . والخلاصة ان جماعة الوسط يمتازون بالقوة عقلاً وبدناً وعاطفة ويتبين لك كل ما ذكر مما سنذكرهُ في الابواب الآتية

الجامع الازهر والازهريون

الجامع الازهر وضع اساسهُ مملوك رومي من اهالي صقلية . وهو جوهر بن عبد الله الرومي المغربي مولى المعز لدين الله العبيدي وآخر من شاد بنيانهُ عبد الرحمن كتخدا ابن حسن جاويش القازدغلي وذلك قبل الرواق العباسي الجديد . اما جوهر الرومي فقصد مصر بعد موت حاكمها كافور الاخشيدي سنة ٣٥٨ للهجرة واستلمها بعد قتال قليل وخطط القاهرة وبنى الجامع الازهر على ما قالهُ جمهور المؤرخين . شرع في بنائهِ لست بقين من جماد الاولى سنة ٣٥٩ وكمل بناءهُ لتسع خلون من رمضان سنة ٣٦١ وترتب المتصدرون لقراءة العلم فيهِ سنة ٣٨٠ في عهد العزيز بالله المعز . وعليهِ فقد جعل هذا الجامع مدرسة للعلم سنة ٩٩٠ للميلاد . وهو اقدم المدارس المشهورة في العالم ولا يوجد في اوربا اقدم منهُ واكبر في وقتنا الحاضر سوى بضع مدارس . لكن التدريس لم يتصل فيهِ من ذلك العهد الى عهدنا الحاضر . فان الحاكم بن العزيز بنى جامعاً كبيرًا سنة ٤٠٤ للهجرة ونقل المدرسين من الازهر اليهِ ولم يبقِ في الازهر الاَّ صلاة الجمعة . ثم

اقفلهُ صلاح الدين الايوبي وبقي مقفلاً الى ايام الملك الظاهر بيبرس الذي وُلّيَ سنة ٦٦٥ للهجرة . اي بقي معطلاً من التدريس نحو مائتين وستين سنة . لكن الخلفاء الفاطميين استمروا على الاعتناء بهِ وان كان قد نقلوا التدريس منهُ الى جامع الحاكم . فان الحاكم نفسهُ وقف عليهِ الفاً وسبعة وستين ديناراً ونصف دينار تدفع لهُ كل سنة من الذهب العين المعزي . وجعل فيهِ تنوراً من فضة وسبعة عشر قنديلاً من الفضة . وذكر يوسف افندي احمد رسام لجنة الآثار العربيَّة ان في متحف الآثار العربيَّة بجامع الحاكم " الآن " محراباً من الخشب عليهِ كتابة بالخط الكوفي يقال فيها ما نصهُ

بسم الله الرحمن الرحيم . حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً . مما امر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الازهر الشريف بالقاهرة المعزية مولانا وسيدنا المنصور ابو علي الامام الآمر باحكام الله امير المؤمنين صلوات الله عليهِ وعلى ابائهِ الطاهرين وابناءهُ الاكرمين ابن الامام المستعلي بالله امير المؤمنين صلوات الله عليهم اجمعين وعلى ابائهم الائمة الطاهرين الهداة الراشدين وسلم تسليماً كثيراً الى يوم الدين في شهور سنة ٥١٩ والحمد لله وحدهُ

وفصل يوسف افندي احمد كيفيَّة تجديدهِ في عهد الملك الظاهر بيبرس . قال . ان الامير عز الدين ايدمر جدد بناءهُ ورد لهُ ما كان مغتصباً من الحقوق وتبرع لهُ بشيءٍ جزيل من المال واطلق لهُ مالاً طائلاً من السلطان وشيد الواهي من اركانهِ واعلى سقفهُ ذراعاً بعد ان كان قليل الارتفاع ثم رمم وجدد بناءهُ في ازمنة مختلفة واضيفت اليهِ اروقة جديدة . ومن الذين اهتموا بتوسيعهِ وترميمهِ الملك الاشرف ابو النصر قايتباي والملك الاشرف قانصوه الغوري الذي بنى فيهِ

المنارة المنسوبة اليهِ وقد كتب عليها ما نصهُ

" امر بانشاء هذه المأذنة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الاشرف قانصوه الغوري عز نصرهُ بمحمد وآلهِ وكان الفراغ من عمل هذا المكان المبارك في شهر شوال المبارك سنة ٩٢٠ من تاريخ النبي " صلى الله عليهِ وسلم "

وآخر من جدد بنيانهُ واضاف اليهِ اضافات كثيرة قبل العائلة العلويَّة عبد الرحمن كتخدا بن حسن جاويش القازدغلي وذلك سنة ١١٦٧ للهجرة فانهُ انشأ فيهِ الليوان الشرقي المعروف باسمهِ والمدفون بهِ . وبنى رواقًا للصعايدة وجدد المدرسة الطبرسيَّة وانشأ الباب الكبير المشهور بباب المزينين وانشأ رواقًا للمكاوبين والتكرورين . وللعائلة الخديويَّة الايادي البيضاء في توسيعهِ وتجديدهِ ولا سيما للجناب الخديوي "عباس حلمي الثاني" ففي عهدهِ بني الرواق العباسي وانشئت فيهِ المكتبة الازهريَّة العموميَّة . وبلغ ما جمع فيها حتى الآن نحو العشرين الف مجلد تقريبًا قال " المقتطف" الاغر بعد ذكرهِ ما تقدم ولو كتب تاريخ الازهر من حيث بنائهِ واختلاف الاساليب التي جرى عليها بناؤهُ ومزخرفوهُ لملأ كتابًا كبيرًا

وفي الازهر الآن ٢٦ رواقًا و١٥ حارة ويدرس فيهِ ٢٣٦ مدرسًا ويدرس ٨٨٠٩ طالبًا . عددهم بالنسبة الى المذاهب هكذا

الجملة	مالكيَّة	شافعيَّة	حنفيَّة	حنابله	
٢٣٦	٧١	٩٦	٦٦	٣	علماء
	٢٠٣٠	٣٨٧٦	٢٦٣٢	٣٥	طلبة علم
٨٨٠٩	٢١٠١	٣٩٧٢	٢٦٩٨	٣٨	

واما مقدار ما ينفق على الازهر من خبز ونقود فبيانهُ هكذا

الجرايات يوميًّا

رغيف	
٤٠٥١	وارد من ديوان الاوقاف
٧٦٢٣	« « اوقاف اهليَّة
١١٦٧٤	الجملة يوميًّا [1] « اما سنويًّا فيكون عدد ما يأكلونهُ من الارغفة ٤٢٦١٠١٠ »

النقود سنويًّا وارد من الماليَّة

مليم	جنيه		مليم	جنيه
		لحضرات العلماء واولاد المتوفين منهم باعتبار كل شهر ٤٩٠ جنيه و٢٩٤ مليمًا	٥٢٨	٥٨٨٣
		لحضرات العلماء بدل كسوة سنوية يصرف في شهر رمضان	٧٣٧	٠٧٢٧
٢٦٥	٦٦١١	**وارد من ديوان الاوقاف**		
		لحضرات العلماء باعتبار كل شهر	٣٣٣	٥٨
		« مدرسي العلوم الرياضية باعتبار كل شهر		٥٤
		« معلمي الخط باعتبار كل شهر		٣٠
		« مشايخ الاروقة « « «		٣٩
		« العلماء على الوقف الخيري « « «		١٥
		« « « وقف والدة حسين بك باعتبار كل شهر ٧		
		« « من ثمن غلال سنوي	١٤٥	٠٣٥
		مكافئات للممتازين بجودة التحصيل من طلبة الازهر		٦٠٠

(١) قال المستر بنفيلد قنصل اميركا الجنرال السابق بمصر في كتابهِ تاريخ مصر الحالي — ان العيش الذي يعطى للازهريين لا يأكلونهُ كلهُ بل يتصرفون في بعضهِ بالبيع بواسطة متعهدين يشترونهُ منهم —

مليم	جنيه	مليم	جنيه	
			٢٠٠	للكتبخانة الازهرية
		٢٠٠	١٧٩٨	ماهيات لخدمة الجامع والكتبخانة باعتبار كل شهر ١٤٩ جنيه و٠٨٥ مليم
			١٥٠	مصروفات ادارة الجامع
		٢٠٠	٤٠٠	للمجاورين على الوقف الخيري باعتبار كل شهر ٣٣ جنيه و٣٥٠ مليم
			٠٤٨	لزاوية العميان
٨٠٦	١٢٢٩٦		٠١٤	لاحياء ليلتي ١٣ و١٤ رمضان

وارد من اوقاف الاروقة

مليم	جنيه	
٤٨٠	٣٦٤	رواق المغاربة
٠٠٠	٥٠	» الصعايدة
٦٨٨	٠٤٢	» ابن معمر
٠٠٠	٠٢٧	» الشراقوه
٤٨٠	١٢٠	» الحنفية
١٠٥	٠٩٤	» الشوام
٩١٠	٠٦٨	» الاكراد
٨٥٥	٥١٦	» الاتراك
٠٠٠	٠١١	» الحرمين
٣٦٠	٠١٣	» السلمانية
٦٠٠	٠٠٦	» السنارية
٩٢٠	١٩٦	زاوية العميان
	١٥١٢	

مليم	جنيه	مليم	جنيه	
٣٩٨	١٥١٢	٢٠٤	١٥١٢	
		٢٠٤	١٣٨٠٩	

هذا هو تاريخ الازهر الشريف عن اصدق المصادر بسطناهُ بايجاز . اما ميزانيتهُ فقد اخذناها من مولانا العلامة الفاضل الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصريةِ . اما شيخهُ الآن فهو الاستاذ الاكبر شيخ الاسلام مولانا الشيخ سليم البشري . والغرض من الازهر الشريف انما هو تخريج اهل العلم في الدين والشرع من علماء وفقهاء ليتفقهوا في الدين ويُفقهوا اهلهُ فيهِ مستمدين ذلك من الكتاب والسنة على مذاهب الائمة الاربعة [1]

وحيث ان الغرض من تعليم الازهر هو اخراج علماء البَّاء ذوي بصيرة نيّرة وفهم قويم . فالواجب على المتخرجين منهُ تهذيب اخلاق الامة بمعرفتهم التربية الدينيَّة الصحيحة وبما منحوا من العلم النافع واستخراج الفائدة بعد طول بحثهم . والمدارس التي من هذا القبيل نحن احوج الامم اليهـا وهي بالنسبة الى المدارس الاخرى يجب ان تكون ارقاها درجة واعظمها نفعاً . لان المتخرجين منها هم قادة الشعب ورؤَساؤُهُ ووكلاؤُهُ . ولا يحسن حال المتخرج إلاَّ اذا كان المتخرج منهُ حسناً . ولكن من الاسف ان المدارس التي من هذا القبيل فضلاً عن قلتها فحاضرها مما يؤسف لهُ ولو كان الازهر الشريف مقر الرئاسة الدينيَّة ومستودع احكام الشريعة الغراء . والواجب ان تكون حالتهُ الظاهرة والباطنة معادلة لاهميَّة هذه الدرجة حتى يتجدد فيهِ ما اندثر من المجد في الازمنة الماضية . اما وقد اصبح اهلهُ يعدون

	ولادتهُ هجرية	وفاتهُ هجرية
	سنة	سنة
(١) وهم الامام ابي حنيفة النعمان	٨٠	١٥٠
» مالك ابن انس	٩٥	١٧٩
» محمد بن ادريس الشافعي	١٥٠	٢٠٤
» احمد بن حنبل	١٦٤	٢٤١

الفلسفة كفرًا والمنطق زندقة والرياضيات ضلالة والطبيعيات بدعة والكيمياء فرية . ثم يفاخرون بابن رشد وابن سينا وغيرهم مع انهم هم الذين كانوا يشتغلون بتلك العلوم في عصرهم وهم الذين سطعوا بانوارها مشارق الارض ومغاربها فهذا دليل منهم على سوء حاضرهم ان لم يتداركوهُ بالاصلاح والتحسين . والازهريون في تعلمهم المسائل العقليَّة في دائرة ضيقة لا يتزحزحون منها . اذ طرق التعليم في الازهر الآن مما يعدم اظهار المواهب العقليَّة في الانسان لانعدام الوسائل التي تفتح للمتعلمين المجال الى ارتقاء الانسان في عقلهِ واعلاء همتهِ في شؤون حياتهِ وسعادتهِ وذلك لانصراف الاعتناء من المعلمين الى حفظ القواعد المدونة في الكتب لا الى التمرين والعمل في الفنون التي يتلقونها . فانهم يقابلون كل شيءٍ يلزمهُ الاشتغال بالعقل باوهام سخيفة نشأوا عليها والفُوا بها ولو لم يكن سلفهم الاول مثلهم قبلُ . وهم في علوم الدين والشريعة اشبه ببغاء يؤدي الاشارة ولا ينفذ الى ما فيها من الاسرار وما انطوت عليهِ من مناهج الحكمة والقسطاس المستقيم . وكم اعترض عليهم معترض في امرهم وصاح بهم ان انظروا في تمحيص الحق من الباطل ولا تنظروا في تلك المشاغبات التي لا تجدي نفعاً ولا تدفع ضرًّا فلا يسمع منهم الاَّ قولهم "اعتقد ولا تجادل" ولو كانت احكام ديننا القويم تأمرهم بالنظر في العلم والتبصر في كل شيءٍ . ولا ندري كيف يكون لنا قوام منهم للنهضة الحقيقيَّة والعلم الصحيح وهم محسوبون على الامة انهم اهل العلم والفهم فيها . وتراهم يحضرون دروسهم على امل انها صناعات يجب عليهم ان ينظروها لا ان يتعلموها لينفعوا بها انفسهم واخوانهم كما هو الغرض من العلم والتعليم وقلما يزجر المعلم منهم تلميذهُ اذا تطاول عليهِ او ينصحهُ اذا اخلَّ بالآداب التي ينبغي ان يكون عليها . وكثيرًا ما يقع بينهم النزاع بما لا طائل تحتهُ ويفضي الى الشتم بدلاً عن التي هي احسن كما

هو اللازم بشأن امثالهم . وحبذا لو تعتني المشيخة بايجاد مراقبين على من يخل بآداب العلم او الدرس والمذاكرة . او تلزم المدرسين ان يكونوا هم انفسهم مراقبين على التلامذة وان يهتموا بنصحهم وتقويم عوجهم حتى يخلص لنا منهم علماء مرشدون وادباء مهذبون . لا يظنون ان قراءة الاوراد والاحزاب تبعد الجهل من بيننا (١) بل يعلمون ان من الواجب ان يرشدوا الامة في وقتها الحاضر الى ما فيه النفع لها بواسطة نشر العلم في الرسائل والمجلات . مع ان كل طائفة في مصر لها نشرة من سادة علمائها للتعليم وبث الفائدة بما يحسن الاعتقاد في الدين . وبين حقيقته التي غمضت . وهذا لعمري منتهى الجبن منهم والاغفال لواجبهم . وما عهدنا في من يعلم العلم ان يجبن عن اظهاره او يضن به على اخوانه ومن يروم الانتفاع منه . هذا ولا يظن القارئ ان علوم النحو والصرف وما بقي من مشتملات اللغة العربية متقدمة عندهم او انهم مجيدون فيها . كلاَّ بل الحقيقة انهم مقصرون في الانشاء والكتابة فيها ولا يحسنونها وذلك لحفظهم القواعد وحدها دون التمرن على ما وضعت له القواعد عملاً . فهم يجهدون القوى في البحث في القواعد دون تحصيل ملكة العلم التي بها يكون الانسان عالمًا حقيقيًّا وبها يستغني عن النظر في القواعد واضاعة الزمن في صحتها وفسادها . فلذا ترى الاكثر منهم ليس لاحدهم مقدرة على التعبير عن فكره . وهم ان كتبوا ظنَّ القارئ لكتابتهم انها تعاليق او شرح على متن او تفسير لشيء مبهم . وكفى دليلاً على انحطاط طرق تعليمهم انهُ لا ينجح في امتحان العالمية بين هذا الجم الغفير في كل سنة الاَّ ثلاثة او اربعة اشخاص فقط . ومثل تفريطهم في الانشاء تفريطهم في ضياع اوقاتهم فيما لا يجديهم نفعاً ولا يغني عنهم شيئاً . فلقد اختلفوا مرة في مسألة صرف " عمر " وقضوا فيها

(١) ولا يقولون . ان شمهورش كان صحابيًّا . وكان يحضر على المرحوم الشيخ السقاء

زمناً طويلاً بين اخذ وردّ في القول بصرف "عمر" وعدمهِ حتى ضاع على بعضهم وقتهُ في البحث عن هذه الكلمة وسخر منهم كثير من معاصريهم وما انتج البحث في الصرف اضافة حرف او اهمال حرف . وبقيت كلمة عمر هي هي على ما هي عليهِ كما تركها سيبويه بعد دقة تصريفهِ وغرابة ترصيفهِ . ومثل تفريطهم في اوقاتهم تفريطهم في ضياع امتعتهم وكتبهم وملابسهم ودراهمهم . فان الزائر للازهر المعمور لا يمر بين عمود وآخر او خزانة واخرى الاَّ يجد الاعلانات عن فقدان اشيائهم ملصوقة على الجدران . ولقد ذهبت اخيراً فعددت عشرة اعلانات احدهم معلناً فيهِ ضياع كيس نقود فيهِ سبعة عشر غرشاً ومليماً وآخر معلناً فيهِ ضياع كتاب "الكفراوي" وآخر ضياع شهادتهِ المدرسيةّ [1] وآخر ضياع دواية نحاس وآخر معلناً بقولهِ "يا من لقي منكم جزمة على درس الشيخ رزق صبح فليسأل علي حسن ابراهيم" . وليس للازهريين عناية تذكر بالنظافة وكثيراً ما يراهم الانسان في صحن الجامع يحلقون ويتركون شعر الحلاقة يتطاير في الجامع وهم ينشرون الخبز في الشمس . وقلّ ان تعرف اجسامهم الماءَ صيفاً او شتاءً . مع

(١) اليك صورة الاعلان المعلن بهِ صاحب الشهادة المدرسية نأتي عليهِ بالحرف الواحد ليتبين للقارىء تقصير الازهريين في الانشاء والكتابة

اعلان

حضرات المجاورين الفخام

اعلن حضرات المجاورين الفخام . بان الشهادة الدراسية الابتدائية تعلقي نحن حافظ امين ابن امين اسماعيل المولود في قلما "قليوبية" بتاريخ ١٨٨٣ فقد فقدت مني ما بين بيت الشيخ النجاري والبوستة والازهر فمن لقاها منكم فليكتب اسمهُ على الاعلان و يعرفنا عن مكانهِ في اي جهة ولهُ من الله الاجر ومن صاحبها المحترم الدعاء اناء الليل واطراف النهار . ومن قطع هذه الورقة قطعهُ الله من هذا المكان

ان النظافة اجدر بهم واليق ما داموا يقرأون قولهُ تعالى — وثيابك فطهر والرجز فاهجر — كما ان التربية والآداب فيما بين الكثير مفقودة مع انهما اهم شيءٍ ينبغي ان يكون بينهم حتى يمكنهم ان يعظوا غيرهم و يرشدوهُ . ومن المعلوم ان فاقد الشيءِ لا يعطيهُ . ولكن اللعب مع بعضهم بعضاً موجود " ومن نقص في تربية نفسهِ كيف يتعرض لتربية الخلق " فانك لا تمر بينهم الاَّ وتسمع سب الام والاب من شخص لآخر . نعم ان الآداب السامية بينهم ولكن في بطون الكتب التي يقرأونها ولا يعونها . والخلاصة ان حاضر الازهر محتاج لزيادة الاهتمام بهِ من جميع الامة صغيرها و كبيرها . وهو في حاجة لاستبدال الحصر بالمقاعد والكراسي فان الطلبة قلَّ ان تجد منهم من لم يكن مصاباً بالروماتزم والبواسير وسببهُ جلوسهم على البلاط شتاءً وصيفاً . وحبذا لو تبارى الاغنياء في اهداء ذلك اليهِ واهداء الكتب التي تلزمهُ كما اهدى ورثة المرحوم سليمان باشا اباظه مكتبتهُ الى الجامع الازهر وهي على ما يقال نحو الفي مجلد اكثرها من الكتب الخطيَّة النادرة الوجود العزيزة المثال . وغير ذلك من الوسائل التي لا بد للتعليم منها مثل الكرات الارضيَّة والفلكيَّة والخرايط والاطالس والمجسمات وغير ذلك مما يوجد عند بعض الاغنياء مهملاً ويباع في المزاد بعد وفاتهم بابخس الاثمان . حتى يسهل بذلك على اللجنة المنوط بها اصلاح التعليم في الجامع الازهر . ويقوى فيهم حب ما نتمناهُ ويتمناهُ كل مسلم غيور على الاسلام راغب في ارتقاء العلم بين اهلهِ وامتهِ والاَّ فقد تداوت للكل عللهم الاَّ نحن فعللنا باقية في اندمال

الهمنا الله روح الحكمة والسداد حتى نفقهَ قول المرشد الاعظم — افضل من يمشي على الارض المعلمون والمتعلمون —

العلماء

" قال عليهِ الصلاة والسلام " من اراد الدنيا فعليهِ بالعلم ومن اراد الآخرة فعليهِ بالعلم ومن ارادهما معاً فعليهِ بالعلم

ماضي العلماء في الاسلام يظهر منهُ انهم كانوا مصابيح للدين يستضاء بنبراس هدايتهم للحق اليقين نجوماً للارشاد حلفاء للصدق . هداة للمارق والضال تقام بهم احكام السنة وتهدم بهم اركان البدعة . تشرق بهم انوار العدالة وتتحلى بهم وتزهو بآدابهم اندية الفضل مصادر للعفة والنزاهة ويغنينا عن ذكر ذلك ان نتأمل في سير الماضين منهم رحمهم الله . اما خلفهم الآن فقد اهملوا كل ما تقدم وانقطعوا عن العمل بالنصح والارشاد للحق اليقين واصبح ضنهم بعلمهم على الامة غنيها وفقيرها مشهوراً . ولم يقتصر الامر على ذلك بل تناول اولادهم واحفادهم . فلذا ترى اولادهم يشار اليهم بالبنان في الجهل وسقم الفهم . ولو سألت عن ابن ذاك الشيخ الثاقب البصر والبصيرة الخادم للدين والشرع لساءك ما تعلمهُ عنهُ . ولتبين لديك العار والفضيحة من جراء عمل علمائنا الحاضرين لاشتغالهم فيما ليس فيهِ نفع الامة والدين بل وتضييعهم لما هو الصق بهم من تهذيب اولادهم وتربيتهم تربية حسنة مع انهم يعكفون على تضييع اوقاتهم بما لا يجدي نفعاً ولا يذهب ضرًّا ولو كانت الامة غنيها وفقيرها احوج اليهم كي يهدوها الى الشفاء مما المَّ بها مما لم يكن فيها قبلاً . في حين ان اكثر اهل الاسلام لا يعرفون من امور دينهم الاَّ ما ينكرهُ الدين عليهم وفي وقت اصبح الفكر فيهِ غير سليم من الاضطراب عند البحث في مسألة دينيَّة . وفي وقت تقلص ذلك العلم اليقيني والمعرفة الصحيحة وانبسط ظلال الجهالة والخرافة حتى تغيرت معالم كل شيءٍ . ودخل في الدين ما الدين بعيدٌ عنهُ وبريءٌ منهُ . والاَّ فارني عالماً منهم قام وحض الامة على نفع يذكر من مثل حض

الناس على المحبة وترك الشقاق المستولي على الكل والتفرق الذي اوصلنا الى أسوإ الاحوال — ولا ترني تداخل بعضهم لاستفحال الشر وجلب الضر بين الاخ واخيهِ ومسائل المواريث فانها معلومة امرها — بل أرني اعتراض البعض منهم على عدم مبيع الاوقاف للاجانب وغيرهم او أرني حض الناس على دفع مال الزكاة والزكاة واجب اداءها وهي احد الاركان الخمس الذي بني عليها الاسلام وما حضّ القرآن على شيءٍ من الاركان حضهُ عليها . وزكاة المال فرض عين عند حولان الحول على كل مسلم بالغ عاقل مالك للنصاب . او ارني من قام ودل الامة على الاحاديث الموضوعة ليجتنبوها وهي عندنا تعد بالآلاف وذكر بعضها فاضل اديب (١) وان شئت فقل لا تجد بين العامة والجمهور منتشراً وشائعاً الاَّ الحديث الموضوع . تالله لو كان علماء الاسلام يهتمون بحض الناس على التمسك بالفضيلة والبعد عن الرذيلة والسير بمخافة الله لما قامت للشرور بين الامة قائمة ولا انتشر فيها ما نشاهدهُ الآن ونتجرع غصصهُ وآلامهُ

اما واكثرهم ضان بمعارفهِ باخل بعلومهِ وافراد الشعب خاصتهُ وعامتهُ في الرذائل قائمون منهمكون فلا عجب اذا دخل في الدين ما ليس منهُ ولا استغراب ان زادت الآثام الى الحد الذي يستوجب كدر العقلاء وكل ذي احساس . نعم اسف العقلاء من ذلك كثير ولكن اسفهم من عدم دعوتهم للدين اكثر اذ — الدعوة الى الدين وبعث البعوث لها من اطراف الارض الى اطرافها امر واجب في الدين الاسلامي فانهُ لم ينتشر من بطاح مكة الى حيطان الصين الى اقصى

(١) ذكر بعض تلك الاحاديث الموضوعة محمد البشير ظافر الشاذلي في مجلة الموسوعات عدد ٢٣ جزء ٢ وذكر بعض اسماء الكذابين والمتروكين عند ائمة الحديث والكتب المشحونة بها ولكن يوجد غيرها كثير لم يذكرهُ حضرتهُ

الغرب الى مجاهل الجنوب الى جزائر المحيط الاَّ بهذه الدعوة محمولة في صدور رجال تجشموا متاعب الاسفار في زمن كان فيهِ السفر قطعة من العذاب فلم يمنعهم هذا العذاب من الوصول الى حدود الهند وغيرها خطوة خطوة يصيبهم الظمأ وينهكهم التعب وتبري تحتهم ابدان الابل وتغور اعين المطايا[1] قاموا بهذا امتثالاً لامر الله بالجهاد في سبيل الله والجهاد ليس السيف وحدهُ والسيف القاضب مخراق لاعب اذا لم تمضِ الدعوة حقهُ وجهاد الغي والغواية والجهل والجهالة والهوى والضلالة بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الاكبر وهذا هو الجهاد في الله قال تعالى — وجاهدوا في الله حق جهادهِ — قال المحققون من المفسرين في تفسير هذه الآية — هو امر بالغزو ومجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الاكبر — وعن النبي صلى الله عليهِ وسلم انهُ رجع من بعض غزواتهِ فقال "رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر"

هذه كانت سير السلف رضي الله عنهم وهذا كان ديدنهم وهذا كان عملهم في نشر الدين الاسلامي وانارة القلوب بنورهِ وهداية النفوس بهديهِ وتطهير الصدور من ادران الضلالة واوضار الخرافة بالادلة الساطعة والبراهين القاطعة . ولكن من نكد الدنيا ان خلف من بعدهم خلف انقطعوا عن العمل وقعدوا عن الواجب وركنوا الى الراحة ووقفوا عند التفاخر والتشامخ باعمال غيرهم حتى اضمحل ذلك التفاخر على طول الزمن بانقطاع العمل والعمل بنيان اذا لم يسندهُ عمل آخر تهدم وانتقض وما زلنا على هذا التقاعد والتقاعس والتخاذل حتى ضاعت الفرص

(١) رحم الله عقبة بن نافع القائل عند وصولهِ بجنودهِ شمال افريقا حتى بلغ المحيط الاطلنطيقي — اللهمَّ رب محمد لولا ان امواج هذا البحر تعوقني لذهبت لانشر مجد اسمك العظيم في اقصى حدود الدنيا —

وانسدت وجوه المساعي وأنست النفوس بهذا الخمول والفت القلوب هذا القعود[1] واصبح احدهم لا يهتز لمصيبة تقع على اخوانهِ وبني ملتهِ ولكنهُ يرتعد ويهتز اذا أُصيب بادنى شيءٍ يقطع عنهُ معيشتهُ او يؤخر عنهُ منفعتهُ وهذا من الذين ذكرهم الله في قولهِ عن امثالهم من الذين لا يهتمون الاَّ لمنفعتهم (جعل فتنة الناس كعذاب الله) والمتأمل لرجال العلم والدين عند السوى يأخذهُ العجب لاقدامهم واحجامنا مما يجعلهُ ان يغبطهم ويتمنى لنا ما لهم فانا نسمع كل بضعة ايام بارساليَّة للتبشير تذهب الى الاقطار السودانيَّة من بروتستنت وكاثوليك بغية بث تعاليمهم وارشاداتهم وديانتهم حتى لقد بلغ منهم السعي انهم ترجموا الانجيل الشريف بلغة سكان النوبة (البرابرة) وطبعوهُ على ورق نباتي حتى يظنهُ ابناء تلك الجهات جزءًا من اجزاء القرآن الشريف ثم هم يوزعونهُ عليهم بدون مقابل وهو اول كتاب كُتِبَ على ما نعلم بلغة (البرابرة) ولا يحق لنا لومهم وتعنيفهم ما داموا يقدمون على كل عمل يعود على دينهم بالفائدة .[2] ولا يقتصرون على البعثات الدينيَّة

(١) عن مصباح الشرق عدد ٣٠

(٢) الفضل في ذلك للجمعية البريطانية والاجنبية لنشر التوراة والانجيل . وهذه الجمعية تأسست في سنة ١٨٠٤ بقصد نشر كلمة الله في العالم باسرهِ وقد صرفت هذه الجمعية اكثر من ٦ ملايين جنيه انكليزي في طبع وترجمة مائة وعشرين نسخة من الكتب المقدسة الى مائتين وثمانين لغة من اللغات التي لم يوجد لاكثرها حروف كتابية وكانت العلماء والمرسلون في كل الانحاء هم العاملين المجدين من طبيعتهم على اتمام هذا المشروع . ولم تخلُ بلدة من البلاد من نصيب من نفحات هذه الجمعية ولها في اوربا وكلاء ومكاتبين وعمال ومكاتب يشتغلون بكل وفاق واتحاد مع جمعيات المرسلين الاخر في اقصى البلاد . فالسوريون والعجم والهنديون والصينيون والحبش والكفرة وسكان مداغشقر وزيلانده الجديدة وبولينزيا والمكسيك والاسكيمو وامم أُخرى قد استمالوا بواسطة هذه الجمعية لسماع كلمة الله تتلى بلغتهم

بل يرسلون ايضاً البعثات الطبيَّة وقد عزمت الجمعيَّة المسماة "بشرتش ميشونري سوسايتي" على بناء مستشفى تذكاراً لاسم غردون ولهذه الجمعيَّة طبيب يدعى هاربر ورجل آخر من اشراف الانكليز الذين لا يستنكفون من خدمة الانسانيَّة مع علو منزلتهم وقد سافرت جماعتهم في الشتاء الماضي للاقطار السودانيَّة وشاهدنا سفرهم على محطة مصر في ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٩ وهم على اشدّ ما يمكن ان يكونوا عليهِ من الفرح والسرور العظيم . وودعهم جماعة من كبار الانكليز وسائر مستخدمي الجمعيات الانكليزيَّة في القاهرة ومصر القديمة والدكاترة وطسن وهارفي من المرسلين الاميركان

والجمعية ترجو المسيحيين على اختلاف مذاهبهم ان يتكرموا ليس فقط بمساعدة الجمعية بعطاياهم بل للاستقاء من كنز المعارف والآداب التي تفتحهُ لهم . فالمدارس والمستشفيات والسجون والمحلات المخصصة للثربية والجيش البري والبحري يشهدون بما أُلتهُ هذه الجمعية من الخيرات والمساعدة . وهي تعتبر ان الانقلابات السياسية والاشتراكية والمهاجرة والمعارض العمومية والحروب والمصايب التي تصيب عموم الجنس البشري كانها تطالبها بمضاعفة همتها لادخال كلمة الله في كل مكان

والجمعية يخدمها اكثر من الف مترجم ومصحح وكلهم يشتغلون بترجمة الكتب المقدسة الى لغات الارض و يصلحون الترجمات القديمة وقد ترجم الانجيل في سنة ١٨٩٩ فقط الى ١٣ لغة منها لغة قبائل الهنود وجنوبي اوستريا ومتوسط ما يصرف من الكتب بقصد توزيعهِ من مكتبة لندن وحدها يزيد على سبعة آلاف نسخة سنوياً وما يخرج من المخازن الاخرى في الجهات الاخرى يزيد على ذلك . والجمعية المذكورة تطبع كتبها في لندن و باريس ونانسي و بروكسل وامستردام و برلين وكوتوني وفينا وروميه ومدريد ولسبون و كوبنهاج واستوكهولم و بطرس برج والقسطنطينية و بيروت و بمباي وكلكوتا ومدراس وشنجهاي والكاب وسدني وفي باقي البلاد الاخرى الكبرى واخيراً طبع الانجيل بلغة "البرابرة" في الاسكندرية

ترجمنا ما ذكر من مقدمة عينة ترجمة الانجيل الى لغات ورطان جميع الامم تقريباً المطبوع بمعرفة جمعية نشر التوراة والانجيل بشارع كوبين فيكتوريا استريت نمرة ١٤٨ المطبوع سنة ١٨٩٠

وسائر سيدات المستشفيات ورئيسات المدارس الانكليزية وموظفو الجمعيات ولما تحرك القطار للسفر هتف لهم الحضور بصوت واحد داعين لهم بالتوفيق . ولقد اثر هذا المنظر في نفسي فدعوت لهم ايضاً شكراً على همتهم . كما اني تألمت من ضعف همتنا وتقاعدنا عن اقرب الاشياء الينا وبعدنا عن المساعي المحمودة بهمة علمائنا العاكفين نهاراً على التفتيش في الكتب والتفاسير التي عليها[1] . حتى اذا وقف احدهم على بيت من النظم قديم قلّبهُ ذات اليمين وذات الشمال واكثر عنهُ البحث والتنقيب كالبيت الآتي

ويسقط بينهـا المرئي لغو كماء العنب في الدبة الحواء

ثم يتناظر مع رفقائهِ وكلٌ منهما يجتهد في اظهار غلطة فيهِ . وقد يعكف اذكاهم على اظهار خطائهِ . ثم يقول ان فيهِ خمس عشرة غلطة بعدد اوتادهِ واسبابهِ ثلاثاً منهنَّ من خطإِ الاشموني والرابعة من خطإِ الحفني وعشراً من خطإِ الصبان والاخرى لغيرهِ وتشتغل الجرائد بكتابة الفصول الطويلة والجمل العريضة عن ذلك وباقي الامة يقرأُون وهم عن خيرهم لاهون . ولا يقتصر الحال على ذلك فقط بل إن مسألة منع "عمر" وصرفهِ شغلتهم ايضاً زمناً ليس بالقليل ولا تنسَ بحثهم عن نملة سليمان أهي ذكر ام انثى فان هذا مما يضحك الثكلى . فهذه السفاسف وامثالها تثبت عدم اعتنائهم بوقتهم من جهة وغفلتهم عما هم فيهِ من الاحوال وما ينبغي ان

(١) وحبذا لو كان هذا البحث دأب الكثير ولكن منهم من لا يهتم بشيء من البحث ما دام يجد تعظيماً من العوام وتفخيماً من الجهلاء فتراهُ يلهو ويزهو وسواءٌ عليهِ أكان الاسلام والمسلمون في عز ورفعة او انحطاط وذلة . اولم يعلم ان اهم شيء يجب عليهِ هو السعي في ان يكون دينهُ عزيزاً وامتهُ مرتقية وهذا شيء ارشد اليهِ القرآن الكريم بقولهِ "ولله العزة ولرسولهِ وللمؤمنين" وفق الله علماءنا لان يكونوا عاملين بمقتضى هذه الآية الجليلة آمين

يكونوا عليهِ امام الله والناس . وهذه مسألة اصلاح المحاكم الشرعيَّة اقامتهم واقعدتهم ولا يزال تأثيرها في الاذهان لانهم حيروا الامة بمخالفتهم بعضهم لبعض في ما هو الصواب من ذلك كلهِ . ففريق كان يقول بان الاصلاح المنوي ادخالهُ على المحاكم الشرعيَّة مخالف للشرع . وفريق يخالف هذا القول ويكتب في الجرائد ضدهُ . حتى ان الامة للآن لا تدري بعد طول هذا الشقاق اي الفريقين مصيب في دعواهُ

ويغلب على الظن انهُ الفريق المجوز ادخال الاصلاح . والاَّ لما قبل بهِ العلامة الفاضل الشيخ محمد عبده ووضع لهُ ذلك التقرير المشهور (ولو كان للآن لم يعمل بهِ تماماً) والمنتظر تنفيذ ما فيهِ لانهُ هو الذي ينتظم بهِ امر هذه المحاكم وبهِ يعود اليها العدل والانصاف و يرتفع النزاع والخلاف ومن هنا يمكننا الاستنتاج ان زمن علمائنا في مصر ينقضي في ما لا نفع لهم وللامة منهُ وهذا شيءٌ يسوءُنا ذكرهُ ويدل على ان اوقات العلماء تمر بلا فائدة سوى اظهار التقصير في العلم . والاقتصار على الدعوى عوضاً عن الاجتهاد في التحصيل . ولا شك ان الامة التي يسوسها في دينها ودنياها امثال هؤلاء الرجال تتأخر وتعفو آثارها ولست في حاجة الى تكرار الاسباب التي اوجبت جهالة هؤلاء ما داموا هم العاكفين على درس ما تقدم من كل شيءٍ لا ينفع الاَّ في ازمانهِ الماضية

ذلك عملهم في النهار يعملونهُ حال اشتغالهم بعلمهم اما عملهم وقت فراغهم فيما بقي من النهار و بعض الليل فعمل وسعي حثيث في زيارة هذا المعظيم والتزلف لذاك الغني او في بث الشكوى لولاة الامور من قلة المرتب والجراية والرجاء والواسطة في ميراث مورث او غيرهِ حتى اصبح امر تزلفهم مشهوراً عنهم بعد ان كان سلفهم اذا دعي احدهم لمجالسة امير او عظيم لا يلبي دعوتهُ وكما هو معروف في سير السلف

الصالح منهم[1] وقد حدث عند هؤلاء العلماء شيء لم يكن معروفاً لدى العلماء من قبل وهو سهرهم في الافراح والمحافل . فان العلماء قديماً كانوا لا يسهرون الى ما بعد العشاء الاَّ قليلاً للمذاكرة وتحصيل العلم . اما الآن فترى بعض العلماء هذا ساهراً في فرح وذاك في وليمة او ليلة طرب يراهم الرائي وهم مختلطون بين القوم فيعجب ويأسف لزي عربي جميل كان اولى ان يصان من ان يكون بين السكّيرين ليلاً اذ يشاهدهم الناظر بقرب قاعات المشروب فيظن بهم ما هم براءٌ منهُ . ومن الذي يبرئهم وهم مختلطون باولئك اختلاط الحابل بالنابل . تالله انهم يجرون عليهم بوجودهم في تلك المحافل اثم الظن وظن الاثم مع ما في ذلك من اقرارهم المنكر وعدم انكارهم اياهُ وكأن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس من شأنهم مع انهم المخاطبون به والمأمورون بامتثاله . والاَّ فاين هم الآن والدين يحرم عليهم ذلك . ان الديانة الاسلاميَّة روح العمران وسعادة الانسان . وهي التي لا تجعل في الاذهان نقيصة او شبه نقيصة لمن وهب العلم بها واطلع على ما في كتابها الحكيم من مناهج الحق والكمال . الاَّ ان من العلماء الحاضرين من هم من أفسد الناس اخلاقاً وادابًا . ولكن حاشا الدين ان يكون قد افسد اخلاقهم وآدابهم . ولكن المرجح ان لذلك

(١) في السير ان بعض الخلفاء ارسل يطلب احد العلماء فلما جاءهُ الخادم وجدهُ جالساً وحولهُ الكتب وهو يطالع فيها . فقال لهُ ان امير المؤمنين يدعوك . فقال قل لهُ عندي قوم من الحكماء احادثهم فاذا فرغت منهم حضرت . فلما عاد الخادم الى الخليفة واخبرهُ بذلك قال ويحك من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندهُ . قال والله يا امير المؤمنين ما كان عندهُ احد قال فاحضرهُ الساعة كيف كان . فلما حضر قال لهُ الخليفة من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك فقال

لنا جلساء ما نمل حديثهم ... البّاء مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ... ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا
فان قلت اموات فلم تعد امرهم ... وان قلت احياء فلست مفندا

اسبابًا أُخرى هي على ما نعلم اشتغالهم بالدنيا وانكبابهم على التزلف للاغنياء وقلّة الثقة بالله وعدم المبالاة بالاوامر والنواهي حتى التحقوا بالعامة . ويكاد بعضهم يكون ذا خلقين خلق حال اجتماعهم مع الناس . وخلق حال وجودهم في بيوتهم مع نسائهم وخدمهم . يسلكون في كل حالةٍ مسلكاً يخالف الآخر . ففي الاولى اظهار اخلاص وولاءٍ وطاعة وسعيٌ في انجاح حقوق الله . وفي الثانية سوءُ معاملة وكدر واحتقار بعكس حالهم في اجتماعهم مع الناس حتى انهُ ليصدق عليهم مثل العرب قديمًا عنهم — ان اشد الناس بغضاً للعالم امرأتهُ وخادمهُ — وحتى ان زوجة الواحد منهم لا تتكلم عنهُ بين معارفها الاَّ بذكر معايبهِ وقلَّ من لا عيب فيهِ منهم

ولكن الذنب في ذٰلك على الازواج الذين لم يهدوا نساءهم الى العلم والتربية الصحيحة حتى لا يستوي لدى احداهنَّ العالم والجاهل . ذٰلك حاضر العلماء عندنا فتأملهُ وقل اللهمَّ الهمهم من لدن جلالك الاسمى مواهب الاتحاد المقرون بالثبات حتى يعوضوا مما فقدوهُ وفقدناهُ بسبب توغلهم في الاهمال . وحتى يمكننا ان نرفع رؤوسنا بهم بين الامم المحدقة بنا ونفاخرهم بعلمهم ونعلمهم اننا حقيقة كثيرون اقوياء

الوعظ والوعاظ

" لا خير في كثير من نجواهم الاَّ من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيهِ اجرًا عظيمًا " (قرآن شريف)

الوعظ هو الحث على اداء عمل او اجتنابهِ سواءٌ كان بالترغيب او الارهاب او التذكير . فالترغيب انما يكون في عمل نتيجتهُ حسنة وعقباهُ حميدة . والارهاب لمن حاد عن جادة الصواب والصراط المستقيم . والتذكير لقوم نسوا واجباتهم او

تناسوها . فالوعظ اذاً نتيجتهُ ردّ النفوس الزائغة عن سواء السبيل وكبح جماح التائهين في بيداء الغي والضلالة وواجب اداؤهُ ممن وفق لمعرفة الحق ليردع الذين خدعوا بظواهر الاشياء وراجت عندهم الخزعبلات التي نخرت عظامهم وهم لا يشعرون . وتدثروا بالباطل وهم لا يعلمون . وهو دواءٌ الهيٌّ وشفاءٌ سماوي نافع لان القائم بهِ حق القيام يستمدّهُ من قول من وسعت رحمتهُ كل شيءٍ . فالمحتاجون اليهِ هم اهل الغفلة في دينهم ودنياهم . الذين استولى عليهم القنوط في معيشتهم والحمق في اعمالهم . والذين تكاثرت على نفوسهم ارزاء الخطايا والاوزار . لان الوعظ للموعوظ بهِ اشبه شيءٍ بالدواء للمريض . وكم من موعظة حسنة ضرب بها وجه السكير فاقلع عن سكرهِ . وصفع بها السفيه فغشيهُ الحياء . وسمعها التعيس فشملهُ التوفيق بفضل الوعظ والواعظين الذين وفقوا لتشخيص الداء ووصف الدواء . هذا هو الوعظ كما ذكرنا . وليس كما نسمع بهِ اذ ليست نتيجة وعظ اليوم سوى وضع التضليل على التضليل . ونحن ايها القارئُ نقصُّ عليك بعض ما يجري في الوعظ من الواعظين . ونسألك وأبيك أهذا هو المقصود منهُ ام لا . الوعاظ بيننا الآن اكثرهم ممن تلقوا العلم في الازهر الشريف وحفظوا القرآن والحديث كلمة كلمة ولكنهم لم يتفقهوا فيهما كمن يجب عليهِ حفظ ذلك ومعرفتهُ معرفة حقيقيَّة . فتراهم في المساجد يجلسون للوعظ وارشاد الناس . واكثر ما يكون جلوسهم في ايام الصوم من رمضان وايام الجمع بعد تأدية الصلاة

يبينون على زعمهم ما اغمض على الناس فهمهُ . وهم احوج الناس لمن يبين لهم ذلك الذي يبينونهُ . فيذكرون للناس السنن ويتركون الفروض . كما انهم يشرحون الحرام ولا يذكرون الحلال . ويحببون الى الناس الجدال في الدين . ولو كان الجدال مكروهاً عند العلماء . فيجري هؤلاء العامة في الجدال جري العلماء فيهِ

حتى لقد يخرج الصاحبان متخاصمين بفضل هذا الجدال الامر الذي يوقع النفور بين الافراد ويصبح عثرة في سبيل توحيد الامة وضمها على قلب رجل واحد

نعم ان الجدال مع ما فيهِ قد يوقظ الفهم ويثير الانفة لاقتباس العلم . ولكن ذلك لا يجدي نفعاً ما دمنا نعرف حال العامة منا ممن حقت كلمة الله عليهم "ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير" وناهيك عما يعلمهُ هؤلاء الوعاظ وما يذكرونهُ من الاحاديث الموضوعة كذباً على النبي صلى الله عليهِ وسلم كالذي قيل عن الارز نذكرهُ[1] والاسف ملءُ الضلوع — الارز مني وانا من الارز — او (خُلِقَ الارز من بقيَّة نفسي) او (لو كان الارز حيواناً لكان آدميًّا ولو كان آدميًّا لكان رجلاً صالحًا ولو كان رجلاً صالحًا لكان نبيًّا ولو كان نبيًّا لكان مرسلاً ولو كان مرسلاً لكنت انا) او (من أكل الارز اربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبهِ) يقول الوعاظ هذا القول ولا يخشون الله وعذابهُ . وهؤلاء الوعاظ لا يقتصر وجودهم على مصر بل هم مبثوثون في كافة مدن القطر ونواحيهِ ولا يقتصر الامر على جماعة الوعاظ بل يشاركهم فيهِ ايضاً خطباء المساجد الذين فقدوا الرشد كما فقدت الامة الرشاد فضاعت بسببهم حكمة الخطابة وما وضعت لاجلهِ ولقد سمع احدهم خطيباً في الريف ذا جهل وتخريف صعد المنبر وحمد وكبر ثم اثنى في تفخيم وترقيق الى ذكر طول قصر ابي بكر الصديق . فقال . ان جبريل سار في طولهِ ثلاثة اشهر باجنحتهِ الاربعين ومن المعلوم انهُ كان ينزل على النبي صلى الله عليهِ وسلم بجناحين ويقطع الفي سنة وخمسمائة في دقيقتين[2] هذا بعض من كل مما يأتيهِ زمرة الوعاظ والخطباء

(١) نقلنا ذلك عن مجلة الارغول الاسلامية عدد ٣ سنة ٥ والعهدة عليها

(٢) انظر مجلة الارغول الاسلامية عدد ٣ سنة ٥

في المساجد لفساد الدين وتضليل المسلمين . الامر الذي نمسك القلم عن الخوض في عبابهِ لانهُ يفطر الاكباد ويفتت افئدة الذين يغارون على الدين . والله يعلم ما بنا من الاسف لقاء ذكر ما تقدم ولكنها الحقيقة نذكرها ولو جرحت . غير انا لا ننسى فضل بعضهم ولو كانوا قليلين جدًّا ولا ننسى فضل الفضلاء من كبار العلماء الذين علموا احتياج الامة للوعظ والارشاد واقدموا عليهِ بغية نيل الاجر والقيام بالواجب ومن هؤلاء العلامة الفاضل مولانا الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصريَّة حفظهُ الله . فانهُ يعظ بعض ليالٍ في درس التفسير الذي يقرأهُ في الازهر المعمور . ولا يضن بالايضاح الوافي والشرح الشافي بما يقص على سامعيهِ من التفسير والتذكير . وبمقدار شكراننا لهُ نأسف كثيرًا على بعض الازهريين الذين يحضرون حلقتهُ وجلهم وقت القاء تفسيرهِ يشغل نفسهُ بالمماحكات اللفظيَّة ولا يعير سمعهُ للاستفادة والفهم كما ينبغي . وبعضهم لا يحضر الاَّ لتمضية الوقت بين المغرب والعشاء وللتفرج لا غير . وكثيرًا ما شاهدت الاستاذ الفاضل المنوه عنهُ يبرهن لهم على عدم صحة بعض التفاسير فلا يجد منهم الاَّ الخروج عن الطريق بالسؤال في مسألة منطقيَّة او مسألة نحويَّة . وليس لهم غرض الاَّ اخراج الشيخ من دائرة البحث الى دائرة اخرى فيقابل ذلك حفظهُ الله بالصبر الجميل

تلك حال اهل الوعظ عندنا وهم المنتظر منهم استنارة العقل بالارشاد وصلاح القلوب بصالح التعليم والتهذيب

تالله لو داموا سائرين على خطتهم هذه ولم يحيدوا عنها ولم يجدوا من يردعهم عن غيهم ويوقفهم عن وعظهم حتى تستنير انفسهم ويفقهوا ما يقولون . قل على الاسلام الحق السلام وحسبنا الله ونعم الوكيل

القرآن والفقهاء

قد جاءكم من الله كتاب ونور مبين يهدي بهِ الله من اتبع رضوانهُ سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنهِ ويهديهم الى صراطٍ مستقيم (قرآن شريف)

القرآن كتاب مجيد . واجب التعظيم لا يمسهُ الاَّ المطهرون . ابان ما لله على عبادهِ وما لهم عليهِ من الحقوق . ضرب فيهِ من كل مثل وما فرط فيهِ من شيءٍ . جمع فاوعى كل ما فيهِ سعادة البشر في دنياهم واخراهم . وحقائق راهنة لا يزيدها كر الليالي وتعاقب الايام الاَّ وضوحاً وسطوعاً . نزل على رسول الله " صلى الله عليهِ وسلم " وحياً حسب الوقائع . فكان رابطة للمسلمين وجامعة للوحدة الدينيَّة . سورهُ اربع عشرة ومائة . تختلف طولاً وقصراً . ولا تتجاوز الاربعون الاخيرة خمسين آية . ولا تنقص عن ثلاث . وهو مكيٌّ الاَّ ثماني عشرة سورة فمدنيَّة

لهُ اسلوب شرعي في الترتيل يعرفهُ من عرف دينهُ وتفقه في شريعتهِ . وليست قراءتهُ الحقيقيَّة كالقراءة الشائعة الذائعة الآن في اكثر البلاد الاسلاميَّة . بل الحقيقة ان الصحابة والسلف الصالح كانوا يقرأونهُ من غير تلحين . ولقد انكر الامام مالك رضي الله عنهُ القراءة بالتلحين كما هو منصوص في مذهبهِ ومعروف . واجازها الشافعي " رضي الله عنهُ " ولكن لا على الكيفيَّة التي نسمعها من اكثر الفقهاء مما يجعل القراءة تغنياً . فقُرئَ القرآن على سبع طرق اختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها . وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها فمن اراد الوقوف عليها فليرجع اليها — وقرَّاء القرآن فيما مضى من الزمن كانوا يتلونهُ بكل خشوع وادب وتدبر وتعقل . فاوجد فيهم كل الفضائل . كما ابعد عنهم كل الرذائل . ولا غرو فهو كلام المهيمن جل وعلا الذي لا يأتيهِ الباطل من بين يديهِ ولا من خلفهِ تنزيل من عزيز حميد

اما حاضر قرائنا الآن من الفقهاء فمما يؤسف لهُ . فانهُ مع ما نراهُ من اكثرهم غير حافظين لهُ تمام الحفظ لعدم فهمهم معنى الغرض من حفظهِ . تراهم يقرأونهُ في حالة التذاذ . بعذوبة اصوات وتوقيع نغم . وهم لا يأتون على قراءة القليل منهُ حتى يختمونهُ بالغناء وانواع الخلاعة التي لا تناسب ذلك المقام العظيم . وهذا من الوقاحة التي كان الفقهاء امثالهم من قبل لا يعرفونها . وقد بعد الفقهاء الآن بعملهم هذا عما أُمروا بهِ واغفلوا عن واجبهم . فبعدت عن السامعين للقراءة موعظة القرآن الشريف وحكمتهِ . وهبطت درجة تأثير النفوس من احكام هذا الكتاب السماوي الجليل . فهوى الارتباط الديني وضعف الاحساس الملي . وما منشأ ذلك غير الفقهاء الذين يتلون كلام الله بغير خشية منهُ تعالى

وما احسن واجمل ما كتبهُ الشيخ الفاضل صاحب المؤيد الاغر في مؤيدهِ وفي المجلة المصرية العدد الثالث حيث قال . وفي اعتقادي ان تلحين الآيات القرآنية على الطريقة المألوفة الشائعة بين المسلمين كانت من اكبر دواعي انحطاطهم منذ قرون مضت الى الآن . لان هذا التلحين جعل القرآن من قبيل المغاني التي تؤثر على مشاعر النفس من السامع بتأثير الصوت وانغامهِ لا تأثير المعنى المقصود بالذات حتى ان السامع كثيراً ما ينتعش وجدانهُ سروراً او تنفعل نفسهُ انفعالاً يختلف آناً فآناً من مجرد سماع صوت القارىء تلحيناً من حيث لا يعرف الآية التي يلحنها لبعد ما بينهُ وبين القارىء بعداً لا يمكن معهُ تمييز الكلمات ما هي ومن اي سورة تتلى . وبطول العهد وزيادة إلف الناس لهذه الطريقة اتخذ تلحين القرآن ضرباً من الضروب المكملة لسرور الجماعات في الافراح او المسلية للنفوس في المآتم وشعائر الاحزان . وبذلك خرجت قراءة القرآن عندنا من الدائرة التي رسمها الوحي النازل بها من عند الله . الى دائرة صناعية يستوي الامر والنهي

والزجر الشديد . والقصص التاريخيةُ والمواعظ الحسنة والدعاء . كلها تطبق على نقرات الجركا والسيكا والحجازيـــ والعراقي وما اشبه . فلا تقع الآية الصادعة بالحق في امري الدنيا والآخرة على سامع الاَّ كما تقع مقاطع التلحين عند سماع المغنين . تلك الآية التي كانت تلقى على سمع الاعرابي . وقد امتلأ قلبهُ كفراً وشرًّا . وآخر في كل جارحة من جوارحهِ غدراً للاسلام والمسلمين فكأنما هي الصاعقة نزلت من السماء باشد تأثيرها على جميع حواسهِ فيغشاهُ منها ما يغشاهُ . ثم لا يفيق الاَّ وهو صاغر امام هذه القوة الالهية يبهت منها اولاً ويخضع لها ثانياً . اصبحت لا تؤثر على كل سامع لها بطريقة القراءة المألوفة الآن الاَّ كما تقع مقاطع التلحين عند سماع المغنين ان اجاد الملحن سمع من كل اطراف المجلس الله . الله . احسنت . احسنت . كما يسمع المغني المطرب سواءٌ بسواءٍ والاَّ فلا . ثم زاد الطين بلة ان ملحني القرآن انفسهم تفننوا في طريقة تلحينهِ بالتخنث بالصوت وابداء الحركات الغريبة المختلفة في الالقاء بما اخرجهُ عن كونهِ قرآناً الى الغناء المحض ففقد السامعون بذلك كل شيءٍ يعزى الى قراءة القرآن وسماعهِ

واذا كان القرآن كتاب الله الذي انزلهُ على سيدنا محمد "صلى الله عليهِ وسلم" لهداية البشر وتقويم اخلاقهم واصلاحهم في معاشهم ومعادهم ينقلب في كيفية ادائهِ والقائهِ الى هذا الحد وتنصرف مشاعر الوجدان عند سماعهِ عن معانيهِ الى محض مغانٍ هي لجوهرهِ الاسنى عرض عار مستعار . فليس بغريب ان تفسد الامة الاسلامية بهذا الفساد كما كان صلاحها بذلك الصلاح . اه

المحاكم الشرعية وحاضرها

قال [1] العلامة الفاضل الشيخ محمد عبده في تقريرهِ المشهور . تدخل المحاكم الشرعيَّة بين الرجل وزوجتهِ والوالد وولدهِ . والاخ واخيهِ والوصي ومحجورهِ . وما من حق من حقوق القرابة القريبة او البعيدة الاَّ ولها سلطان السيطرة عليهِ والقضاء فيهِ . وانها تنظر من ذلك في ادق الشؤُون واخفاها . ويسمع قاضيها ما لا يسمح لاحد سواهُ ان يسمعهُ سوى ما يكون من الزوج لزوجتهِ او الزوجة لزوجها . فكما انها هيا كل عدل هي كذلك مستودع سر واي سر فمنزلتها من نظام الأَسر "العائلات" تلي منزلة المحبة وروابط القرابة . فاذا تراخت تلك الروابط ومرضت المروءات تعلق حفظ نظام البيوت بالمحاكم الشرعيَّة . وللشريعة الاسلاميَّة في ذلك دقائق لا يسهل الالتفات اليها الاَّ على من احاط علماً بكليات احكامها ووقف بالبحث الصحيح على مقاصدها . ووصل الى ادق معانيها وكان من العلم بلغتها في منزلة يعرفها لهُ اربابها . ولن يكون الرجل كذلك حتَّى يأْخذ الشرع عن اهلهِ وتكون تربيتهُ على السنة الدينيَّة الصحيحة . ثم لا يكون القاضي حافظاً لنظام الأسر والبيوت بعد الاحاطة باحكام الشرع . حتى يكون للشرع سلطان اي سلطان على نفسهِ

هذا هو التعريف الحق عن هذه المحاكم في تقرير وضع تتدفق منهُ الغيرة الدينيَّة رحمة بمعاهد الشرع الشريف . ونحن نقتطف من هذا التقرير ما يدل على الخلل في المحاكم الشرعيَّة . اذ بفضل الاستاذ قد اكتفينا مؤُونة البحث في هذه المحاكم من الوجه الذي وضعت لهُ

(١) انما آثرنا نقل ما كتبهُ حضرة الاستاذ لانهُ اوفى دلالة واوسع اطلاعاً وقولهُ الفصل في هذه المباحث الهامة والمقاصد العامة ولا زال يفيد الامة خيراً واصلاحاً

قال حفظهُ الله عن اماكن هذه المحاكم . اذا ذهبت الى ديوان مديريَّة واردت ان تعرف محل المحكمة الشرعيَّة في ذلك الديوان فابحث عن اردلٍ محل فيهِ تجدهُ مكان المحكمة الشرعيَّة . ثم قال عن فرش هذه المحاكم انهُ رثٌّ قذر وعن الكراسي التي توجد في هذه المحاكم انها من الصنف المعروف بالاخضر . وان وجد عشرة فستة كراسي لا تخلو من كسر . وقال عن حالة الكتبة انهم يشترون الحبر من مالهم . وانهُ حفظهُ الله نظر مضبطة في محكمة من المحاكم طمست سطورها من رداءة الحبر . وقال في ختام كلامهِ عن محال المحاكم الشرعيَّة انها سبب يجعل المتقاضين ينظرون الى القضاء الشرعي بما يحط من قدرهِ

وفي باب الكتبة ما مؤداهُ . ان اكثرهم لا يعرف كيف تعلم صناعة الكتابة . ولا اين كانت تربيتهُ فلذا تكون معرفتهم ناقصة وقليل بينهم الكفوءُ لعملهِ . وانهم يحفظون الفاظًا وعبارات رديئة التركيب مشوشة التأليف الى ان قال . ثم علمت من اختلاط ارباب الحاجات بالكتاب ما لا يمكن معهُ انقطاع الشكوى . ومهما وضع من القواعد لضبط الاعمال لا يمكن ان يقطع شأفة الفساد مع دوام هذا الاختلاط

وجاء عن القضاة . انهُ وجد كثيرًا من قضاة المحاكم الشرعيَّة خصوصًا في المراكز لا تسر معارفهم الشرعيَّة والنظاميَّة . ولا يرضى العدل في اعمالهم وان الحاذق منهم يحوّل جميع القضايا تقريبًا الى محاضر صلح تجنبًا للحكم . ولا يلبث المتصالحان بين يديهِ ان يختلفا لان الصلح غير حقيقي . وان كثيرًا من القضاة يتحاشى سؤال الخصم فيما يهم السؤال عنهُ خشية التهمة . ولكنهُ يستبيح لنفسهِ ان ينصح احد الخصوم بان يطلب شطب القضيَّة

وفي الاعمال الكتابيَّة . قال . حفظ كتاب هذه المحاكم الفاظًا معينة يضعونها

في اساليب معتلة مع تكرار بارد يعسر معهُ الفهم ويسأَم منهُ الذهن . وان لهؤُلاءِ الكتَّاب جرأة في تعريف الاشخاص من متعاقدين وشهود وجيران في الحدود حتى يضطرونهم الى الكذب . او الى اختراع اسماء يتخلصون بها من جهل الكاتب وحماقتهِ

وذكر الاستاذ حفظهُ الله . انهُ رأَى اشهاداً باقامة الجناب الخديوي ناظراً على وقف في دمياط استغرق سبع صفحات بالخط الدقيق وهو لو كتب بالخطوط المعتادة لاستغرق عشرين صفحة او ما يزيد . ومعظمهُ من اللغو الذي لا فائدة فيهِ بل مما يضر بفهم الكلام . وانهُ اي الاستاذ جاءهُ رقيم بطريق البريد من احد الادباء يستغيث بهِ مرسلهُ من تكرار لفظ المذكور والمذكورة في عقود المحاكم ومرافعتها . وانهُ عرض لهُ ان عدَّ هذين اللفظين في شهادتين صغيرتين فوجدهما تكرَّرا سبعاً وعشرين مرة . ربما يحتاج الكلام الى اربع مرات منها فقط والباقي لغو لا معنى لهُ

وقال عما يتعلق بالعقود الواردة من المحاكم المختلطة الى المحاكم الشرعيَّة ما نوجه اليهِ نظر القارىء ليقرأَهُ من الصحيفة ٢٣ الى ٢٦ من التقرير المذكور

وجاء في الكلام على اختصاص المحاكم الشرعيَّة ما يؤخذ منهُ ان بعض القضاة يلتبس عليهم الامر عند التخاصم فيحكمون بعدم الاختصاص فيما هو متعلق بالمواد الشرعيَّة

وفي باب المرافعات . والتوكيل في المخاصمات من صفحة ٣٥ الى ٤٤ ما يدل على مصاعب جمة تفضي بالحقوق الى الضياع كما قد يضيع الوقت على القاضي في سؤَال المنادي وتعريف الزوج الغائب والزوجة الحاضرة مما يدل على ان الحقوق معطلة والمصاعب دون الوصول اليها غير مذللة مع ان دين الله يسر ولا عسر فيهِ (١)

(١) وقد قال تعالى ما جعل عليكم في الدين من حرج وقال عليهِ الصلاة والسلام بعثت بالحنيفية السمحاء ليلها كنهارها

وما ذلك الاَّ لتمسكهم بالمذاهب والاخذ بظواهرها بدون انعام نظر في مقاصد قائلها . وفي الكلام عن الجلسات في هذه المحاكم انهُ لا نظام فيها . وان المتخاصمات من النساء يلعبنَ في اطراف المكان وليس في المجلس ما يمنع متكلماً ان يتكلم ولا مشوشاً ان يشوش . واذا دخل على القضاة محترم قاموا لهُ وحيوهُ والمرافعة جارية . وقد قال الاستاذ انهُ رأى بنفسهِ الكاتب ذا سلطة اكثر من سلطة القاضي مما لا يليق بحرمة القضاء الاسلامي الذي كان يعد مجلسهُ اوقر المجالس واعظمها هيبة حيث كان يجلس الخليفة

وفي باب حضور الخصوم ما يشهد بعظم الخلل مما يجعل القضايا تشطب او تنظر بعد زمن طويل

وفي باب المرافعة ما نوجه اليهِ نظر القارىء ايضاً ليراهُ في التقرير المذكور من الامور المضحكة وكذا في باب الشهادات والادلة ما فيهِ من المماحكات وتضييع الحقوق على كثيرين وكذا في باب التنفيذ امور تجعل التنفيذ كعدمهِ لقلة اهتمام اولي الامر في المحافظات والمديريات

هذا مختصر مما بينهُ الاستاذ حفظهُ الله في تقريرهِ المذكور . ومن يعرف عطل الاشغال في هذه المحاكم الشرعيَّة وما يجري فيها من شهادة الزور[1] وتلاعب المأذونين في عقود الزوج الذين اكثرت الناس الشكوى منهم . واتعب الحكومة امرهم وعم ضررهم الازواج والزوجات وادخل بسببهم في الانساب ما ليس منها . ومن يعرف

(١) حدث اخيرًا من بعض الشهاد امام محكمة مصر الشرعية الكبرى ان الشاهد يؤدي شهادتهُ من ورقة فيها صورة الشهادة . وقد نظرت محكمة الموسكي الاهلية الجزئية في هذه القضية يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٩٩ وبعد ان اعترف المتهمون بذلك ودافع عنهم المحامون دفاعاً طويلاً حكمت المحكمة عليهم بالبراءة . نظرًا لان القانون لا يعاقب شاهد الزور الاَّ اذا حلف اليمين والاَّ فلا تعتبر شهادتهم

ان المحاكم الشرعيَّة فيها الآن من التلاعب بالحق والباطل ما فيها وعرف ان حجابها يستبدون ومحاميها قد نسخوا الشرع باقوالهم . علم ان الشرع اصبح منسوخاً بسببهم حتى كثرت المساوىء وذهبت الغاية المقصودة منها . وغير ذلك كثير يحصل في مسائل المواريث وغيرها ولذلك يطلب العالم بهذه المساوىء مع الطالبين الى ولاة الامور الاسراع بادخال الاصلاح الحقيقي الذي ذكرهُ فضيلة مولانا المفتي في تقريرهُ رأفة بالعجزة الذين لا قوة لهم وبالامهات والاطفال والضعفاء الذين لا سند لهم والذين جرهم نكد طالعهم للمقاضاة امام هذه المحاكم . وليس بعزيز لو أُخلصت النيَّة في اصلاح المحاكم الشرعيَّة ان تهدى الامة الى شرعها الشريف الذي لا تأخذهُ في الحق لومة لائم وقد جعل الله فيهِ صلاح الدين والدنيا معاً فعسى قومنا يتأملون والى شرعهم القويم يرجعون ففيهِ كل الخير والصلاح والنجاح

المدارس والتعليم

المدارس الابتدائية

كان التعليم في مصر من عهد غير بعيد اجبارياً . ولاجل ان يعلم القارىء حقيقة احوال المعارف في الازمنة الغابرة وطرق التعليم فيها نذكرهُ بالحالة التي كان عليها قطرنا قبل وقتنا هذا بمئة عام ليقيس بمعيار ذكائهِ درجة العلم في الماضي بعلم وقتنا الحاضر فنقول

كانت بلادنا المصريَّة منذ مئة عام او تزيد غارقة في بحار الجهل والخمول بسبب تملك دولة المماليك عليها . والولاة الذين كانوا يولون تباعاً بعد انقراض هذه الدولة من قبل دولتنا العليَّة صاحبة الدولة وقتئذٍ ولا يمكثون الاَّ قليلاً ريثما ينالون

غرضهم في زمن توليتهم . وهو جلب المنفعة والمغانم اليهم باية وسيلة كانت . ولذلك السبب لم يعبأوا بنشر التعليم ولم يهتموا بهِ وجاراهم في ذلك المسلمون منا اقتداءً بهم فلم يهتموا ايضاً بتحصيل العلوم والمعارف في زمن هؤلاء الولاة الغاشمين الاَّ القليل منهم فانهم كانوا يقفون انفسهم على تعليم الدين في الجامع الازهر المعمور . اما غيرهم من الطوائف الاخرى فصرفوا جلّ اهتمامهم الى حفظ حياتهم وكيانهم بالعلم . ودليلنا على ذلك ما كان عليهِ الاقباط من المنزلة الكبرى في مناصب الدولة المصريَّة والمقام الاعلى فكانوا متقلدين وظائف حسابيَّة وكتابيَّة وادارية كلها على جانب عظيم من الاهميَّة والخطارة دون منازع او مزاحم لانغماس المسلمين في بحار الجهل واستصغارهم لامثال هذه المناصب التي لا تليق على زعمهم باصحاب البلاد نظيرهم

على انهُ ما مضى زمن كبير يذكر حتى منَّ الله سبحانهُ وتعالى على بلادنا وعلينا بولاية المرحوم الحاج محمد علي باشا كبير الاسرة الخديويَّة الكريمة . الذي نظر لامر التعليم نظرة الحكيم العاقل فوجه انظارهُ الى المعارف وخطا فيها الخطوة الكبرى مما لا يزال أثرهُ باقياً بيننا للآن . وبين ظهرانينا الآن بضعة من اولئك التلامذة الذين درسوا في المدارس التي أسسها رحمهُ الله من ابتدائيَّة وتجهيزيَّة وعالية

وكانت العلوم التي يتلقاها الطلبة فيها من هندسيَّة فطبيَّة على نوعيها البشري والبيطري فعسكريَّة فملكيَّة . وكان اثابهُ الله وطيب ثراهُ يجبر اهالي التلامذة على ارسال اولادهم الى المدارس المجانيَّة التي كان يغدق عليها من فيوض مراحمهِ واحساناتهِ . وكان يبعث بالنابغ منهم الى اوربا لتعليم العلوم العالية حتى اذا عاد استعان بامثالهِ[1] في القيام باعباء الوظائف في خدمة الحكومة وتنظيم شؤونها[2] ودام على

(١) ومع هذا فلا ننكر ان بعضاً من المتعلمين في البلاد الاوربية لم يجعلوا في المناصب التي يليق بهم ان يكونوا بها فضاع كثير مما كان يؤمل ان ينمو بيننا نموًّا حقيقيًّا فان كثيرًا

عملهِ هذا حتى توفاهُ الله وخلفهُ من بعدهِ ابناؤُهُ الكرام الذين حذوا حذوهُ في عملهِ المشكور الى زمن الخديوي الاسبق "اسماعيل باشا" رحمهُ الله الذي تقدمت المعارف في اول عهدهِ ونمت واخرجت العلماءَ والفضلاءَ فكانوا منارة ساطعة في ظلام الجهل وائمة تحج اليهم ركاب الطلاب من كل صوب وناد . ولكن لم يكد التعليم يبلغ ذلك المبلغ الكبير حتى اخذ في اواخر ايامهِ بالتأخر والهبوط وابتدأت المعارف في هبوط مستمر وخصوصاً قبل ايام شبوب نيران الثورة العرابيَّة وما بعدها . التي اوجبت تشويش كل عمل نافع في ذلك الحين وبعدهُ . فاعترى ازهار المعارف اليانعة الذبول واقمار العلوم المشرقة الافول وعفت آثار العلم وعلت عناكب النسيان والاهمال جدرانها وكادت يد الاقدار تمحو ما خطتهُ يدُ التقدم من الفنون لولا ان قيض الله محيي مواتها ومجدد آثارها سليل المجد وربيب الكفاءة ساكن الجنان المرحوم "توفيق باشا" الخديوي السابق الذي في عهدهِ انتعشت روح العلوم وعادت الى سابق مجراها ولكنها لم تكن لتصل الى ما وصلت اليهِ من قبلُ . وسبب ذلك عدم الاهتمام الذي اظهرهُ المحتلون للبلاد وقلة ما هو مخصص لها في ميزانيَّة الحكومة

ويكاد المستفسر عن ذلك يعلم من متولي ادارة المعارف قولهم ان على الاغنياء والموسرين ان يتبرعوا بشيءٍ من اموالهم للاعمال اللازمة لنظارة المعارف . وان

من الذين اتقنوا الرياضيات والطبيعيات لم تستقر وظائفهم على ما علموهُ ليكونوا عاملين حقيقة بل جعلوا في وظائف وان تكن سامية ولكن بمزاولتهم لها أهملوا ما كان ساطعاً في نفوسهم ففقد القطر الانتفاع بما عندهم في الوقت الذي كان احوج ما يكون اليهم وعلى كلٍ فان ما تحصلت عليهِ مصر في ذلك الحين لم يكن منتظراً ان تحصل عليهِ ببضعة قرون ولله في خلقهِ شؤون

(٢) نوجه التفات القارىء الكريم لقراءة ما كتبهُ المغفور لهُ علي مبارك باشا في كتابهِ "الخطط التوفيقية" المطبوع سنة ١٣٠٦ هجرية عن تاريخ حياتهِ

يتباروا في ميدان البذل والعطاء كما جرت عادتهم في بلادهم فاعلوا بهذه الواسطة منار العلم والادب بين ظهرانيهم سعياً وراء الارتقاء لان المرءَ عليهِ ان يتوخى في اعمالهِ نفع وطنهِ وبلادهِ وهذا اعظم سر لارتقائهم في مضمار الحضارة والعمران في هذا الزمان . وانت لو اعترضت عليهم لحاجوك بقول آخر . وهو لماذا لم تساعد الاوقاف على انتشار المعارف وانتشار المعارف كما تعلم عمل يرضى بهِ الواقفون لكونهِ عملاً خيريًا . فان اجبتهم ان بين المعارف اوقافاً يبلغ ريعها من ٣٠ الف جنيه الى ٣٥ الفاً كل سنة وقفها الكثيرون من اهل الخير كما اوقف ساكن الجنان اسماعيل باشا الخديوي الاسبق على الكتاتيب الاهلية تفتيش الوادي وزوائد المساحة في المديريات والحصص التي آلت الى بيت المال . أجابوا انهُ واجب على الامة انفاقها على المعارف لاحيائها وتعميمها ليعود عليها وعلى ابنائها بالربح فيرتفع شأن الوطن والوطنيين ويزيد العلم في مجدهم وفخارهم لان المرءَ يعتز بعز أُمتهِ ويذل بذلها وما مدارس الحكومة الاَّ مثال المدارس الخصوصيَّة ينسج على منوالهِ الناسجون . نعم لا مراءَ في ذلك كلهِ ولكن كيف تفهم الامة ذلك وهي في حالة ظاهرة من التأَخر ولو انهُ قد ثبت بالاستقراء ان المصريين ليسوا اقل من الانكليز والفرنسيس سخاءً وبذلاً للمال ولكن اكثرهم لا يضعون كرمهم في مواضعهِ ليجنوا منهُ الثمر المطلوب ويعود بذلهم بالنفع عليهم . وقد ادرك الكثيرون ذلك اخيراً فانشأُوا المدارس الخاصة بهم لتعليم ابنائهم وتنافسوا فيها ولكن لا يزال المسلمون وهم الاكثر عددًا اقل همة من الطوائف الاخرى المتألفة منها الامة المصريَّة لقلة المطلع على فائدة التعليم منهم . ولبيان ذلك نقول لما علم نبهاء الامة القبطيَّة ان لا وسيلة لبث العلم والمعارف الاَّ بالمدارس الاهليَّة الحاضَّة على التعليم لينشأَ فيها رجال الغد مستكملين للفضائل عالمين بمعرفة ما ينفع وما يضر بلادهم وابناءهم . نهضوا نهضة

كبرى لانشاء المدارس الاهليَّة ولم يدعوا فرصة تذهب سدًى لتشييد اركان المدارس وتوطيد دعائمها فاينعت عندهم رياض المعارف وسارت مدارسهم على منهج من التقدم قويم . إلاَّ نحن معاشر المسلمين فانا رغبنا عن السعي وجعلنا دأبنا وديدنا التنديد على الحكومة لانها على مذهبنا ملزومة بتعليم اولادنا مدفوعة بحق الحكم الى ترقيتهم في معارج التربية والتعليم وعكفنا على التنديد اعواماً كثيرة ولا نزال حتى الآن مع علمنا بانَّ باقي الطوائف قد اهتمت بتعليم اولادها باعتمادها في ذلك على نفسها وعلى غيرة افرادها حتى تقدموا وتأخرنا نحن لاصرارنا على مطالبة الحكومة بتعليم اولادنا وعدم اهتمامنا بان نعلمهم بانفسنا وقد تمر السنين ويشب الولد ويكبر ونحن نتناسى واجباتنا القوميَّة في هذا المطلب سائلين الحكومة المبادرة الى عمل ما نظنهُ من واجباتها دون ان نقتدي بالطوائف التي تسعى لازالة عوائق التقدم من سبيل غايتها المجيدة وازالة كل آفة تلحق بسير التعليم ضررًا حتى حصدوا اخيرًا نباتًا جيدًا ونحن حصدنا نتائج اهمالنا وعاقبة تقصيرنا (١) ثم هم يطلبون الاحسن فائدة لتقدمهم مشمرين عن ساعد الجد باذلين قصارى الجهد . وما حملهم وحقك على الجهاد في سبيل التعليم غير علمهم بان لا شيء يخوّل للسيد سيادتهُ وللخادم خدمتهُ الاَّ سبب معرفة الاول بما يوصلهُ للارتقاء وعدم معرفة الثاني ما يرقيهِ في مدارج العلاء . نعم لا ننكر فضل الهمة التي ظهرت اخيرًا ولكن ذلك قليل على امة تعدادها يقارب تسعة ملايين من النفوس . ولسنا في الحقيقة الاَّ متأخرين اذ لو قابلنا بين عدد المدارس الاهليَّة الاسلاميَّة والمدارس التي للطوائف الاخرى في

(١) ان نسبة المسيحيين الى المسلمين اقل من نسبة ٢ الى ١٠ ومع ذلك فعدد التلامذة المسيحيين الذين نالوا الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ ٢٥٠ اي اكثر من ثلث التلامذة الذين نالوا الشهادة كلهم

كل بلد لوجدنا ان نسبة ما للطوائف الاخرى يضاهي عشرة اضعاف ما لنا . خذ لذلك مثلاً اي بلد شئتهُ ترَ صدق ما نشير اليهِ . ونحن نقدم لذلك مثلاً مدينة سوهاج في الوجه القبلي فان فيها خمس مدارس وطنيَّة عدا مدرستها الاميريَّة منها واحدة للمسلمين واربع للاقباط وكذلك المنيا فيها سبع مدارس غير مدرستها الاميريَّة واحدة للمسلمين وست لاخواننا الاقباط ولا يعزب عن فكر القارىء ان مدارس الاسلام قاصرة على تعليم الذكور اما مدارس المسيحيين ففيها من الذكور والاناث على السواء والفضل كل الفضل في انتشار مدارس المسيحيين انما هو لجمعياتهم . التي اوجدت فيهم النهضة الحقيقيَّة في طلب المعارف . واذا دامت نهضتهم هذه وعمت جميعهم لم يمر عليهم زمان طويل حتى يصبحوا في المعارف من الذين يشار اليهم بالبنان ونحن يشار الينا بالغباوة والجهل . ولكنَّ نهضتهم وتأخرنا عائق مهم لتقدم مجموع الامة اذ هم بالنسبة الينا كنسبة ٦ الى المئة ونحن كنسبة اكثر من ٩٢ في المئة بحسب الاحصاء الاخير فكيف تعتز الامة المصريَّة والشطر الاكبر منها جاهلٌ واجبات الحياة والارتقاء . ان نهضة الاقباط حقيقيَّة شهد بها الكل واية شهادة اكبر من شهادة اللورد كرومر في تقريرهِ الاخير من ان المسلمين في مدارس الحكومة اقل من ٨ في المئة وعدد التلامذة من الاقباط في المدارس الاميريَّة ١٧ في المئة فلا بدَّ لذلك من سبب ؟؟ والسبب هو انا نرى منهم حباً للتعليم واقداماً شديداً عليهِ وولوعاً بالتقدم . غير انا نذكر علة هي السبب المهم لانحطاط التعليم عندنا معشر المسلمين وهي ناتجة من فكر متسلط على الاغلبيَّة منا وهو قولنا عن مدارس الاجانب انها تميل قلوب التلامذة نحوهم ونحو دينهم . ولذا نحجم عن ارسال ابنائنا الى مدارسهم ونحرمهم من التعليم فيها بيد ان الطوائف الاخرى المسيحية قد عكفت على ارسال ابنائها اليها فنجحوا وتقدموا ونحن لم ننتبه

لهذه الغلطة ونقدم على انشاء المدارس التي تغنينا عنهم والتي نحن احوج اليها منهم الاَّ في هذه السنين الاخيرة وما سبب ذلك الاَّ انقسامات الدين فان المسيحي يظن ان بواسطة ادخال ابنهِ لمدارس المسلمين يسلم والمسلم يظن ان بواسطة ادخال ابنهِ المسلم لمدارس المسيحيين يستنصر. وفي ذلك ما يدل على استحكام الجهل في عقول الآباء. "وقد كان الجهل هذه المرة مفيدًا في الاقدام على التنافس" وتملك ملكة الانقسام بين العنصرين الوطنيين لدرجة تؤدي بهم للهلاك وهم لا يدركون والاَّ لو علموا الواجب وتركوا الانقسامات من بينهم لانشأوا المكاتب لقبول الطلبة من المسلمين والنصارى معًا على نسق المكاتب الرشدية الموجودة في بلاد الدولة العلية التي يبلغ عددها المائة ما بين داخلية وخارجية ولامتنع ما نشاهدهُ الآن من احجام اب التلميذ عن ادخال ابنهِ للمدرسة التي تكون من غير مذهبهِ وملتهِ كما هو مشاهد في مدارس الجمعيات الاسلامية والجمعيات المسيحيَّة. فانهُ مع عدم وجود المدارس للمسلمين في بلد يمتنع الآباء عن تعليم ابنائهم وكذلك تفعل امة الاقباط وغيرهم لو لم يكن لهم مدرسة والسبب هو الانقسام المتقدم ذكرهُ. وجهل الاساتذة هو سبب آخر منهم — هذا ونبين للقارئ باجلى بيان عدد مدارسنا الاهليَّة الاسلاميَّة ومدارس الطوائف الاهليَّة المسيحيَّة ليتأكد لديهِ قلة مدارسنا وكثرة مدارسهم منذ كر ذلك على سبيل التنافس العصري المؤدي بالعقلاء الى التمسك باهداب العلم والتربية والذي هو سبب يجعل القوة في جانب القلة كما يجعل الضعف في جانب الكثرة حتى لا يضيع الوقت بالمجادلة ونقريع الحكومة والطلب منها تعليم اولادنا. والله يعلم ما نرمي اليهِ. فنقول: اشتغلت الافكار من عهد قريب بنشر التعليم في البلاد حتى انتهت الحال الى تأسيس بضع مدارس اهليَّة في البلدان ففي الوجه القبلي تأسست مدرسة زعزوع بك ببني سويف ومدرسة علي

بك رفاعه في طهطا وبعض مدارس لافراد آخرين عددها قليل . وفي الوجه البحري وبالاخص المنوفية جمعية المساعي المشكورة التي لها ستة مدارس وفي الاسكندريَّة جمعيَّة العروة الوثقى التي انشأَت من المدارس ايضاً ما يقرب من هذا العدد . وفي القاهرة مدارس ايضاً اشهرها مدرسة القره جلي ومصطفى كامل وولي العهد والعثمانيَّة والعزبة المتمدنة التي انشأها سمو مولانا الخديوي المعظم . وبعض مدارس ايضاً للافراد لا يتجاوز عددها الست

أُنشئت هذه المدارس وسببها التنافس العصري كما قدمنا فاذا اضفنا عدد هذه المدارس الى عدد مدارس الجمعيَّة الخيريَّة الاسلاميَّة الاربع التي سبقت الجميع في انشاء المدارس وجدناها لا تتجاوز الثلاثين عدًّا وكلها مدارس اسلامية . اما لو قابلنا عدد المدارس التي للطوائف الاخرى فاننا نجد ان عددها اضعاف ما لنا من المدارس بكثير فللاميريكان وحدهم على ما جاء في تقريرهم الصادر في سنة ١٨٩٨ ١٨٠ مدرسة وللفرير والجزويت ما يقرب من الستين مدرسة . ولاخواننا الاقباط الارثوذكس مدارس تابعة للبطركخانة عددها تسع وللجمعيات وللافراد مدارس عددها ٦٥ مدرسة وقد وقفنا على هذا العدد من تقرير المرسلين الاميريكان والفرير والجزويت ومن حضرة وهبي بك ناظر المدارس القبطيَّة ومن حضرة رئيس جمعيَّة التوفيق وقد اخذت من حضراتهم كشوفات موضحاً فيها عدد المدارس والتلامذة التي بها فسرني ما علمتهُ من النجاح الباهر . واني اقدر عدد تلامذة هذه المدارس باربعين الف تلميذ وكان بودي درج الكشوف لولا خوف الاطالة وسآمة القارئ وكفانا دليلاً على صدق ما تقدم عنَّا وكفاهم فخرًا على تقدمهم . انهم اول من فتح المدارس في ام درمان وباشر التعليم فيها بعد طول انقطاعهِ عن الامة السودانيَّة فان جماعة الاقباط الارثوذكس المستخدمين هناك اكتتبوا بواسطة

اسقفهم وجمعوا مقداراً وافراً من المال ثم ساعدتهم جمعية انتشار الدين المسيحي ايضاً بمبلغ ٢٥٠ جنيهاً مصرياً فانشأوا بالدراهم التي جمعوها على هذه الكيفية مدرسة فيها على ما جاء في الجرائد ٥٠ تلميذاً مسلما و٢٧ مسيحياً و٣ اسرائيليين [1] فاذا عرفت هذا جميعهُ وعرفت الاسباب الناتجة من قلة التعليم فينا وأنّا اقل همة في التجارة والصناعة كما سنبين ذلك فيما يلي . فلا نقع باللائمة على الحكومة ونحي عليها بالتقريع ونقول عن الغير انهم نائلون اكثر من استحقاقهم في الوظائف وغيرها . كما ذكرت ذلك احدى الجرائد في احد اعدادها . بل حبب الى قومك تعليم ابنائهم وبناتهم واستنفرهم لفتح المدارس وتهيئة الاسباب التي تعدهم للارتقاء والنجاح فقد سلك من تقدم هذا المسلك وفاز في ميدان الحضارة والعمران ونال قصب السبق على الاقران

المدارس التجهيزية

جميع ما تقدم ذكرهُ خاص بالمدارس الابتدائيَّة الاهليَّة . اما المدارس التجهيزيَّة التي هي الواسطة بين العلوم الابتدائيَّة والعالية . والتي هي من كماليات المدارس وضرورة وجودها لازمة في وقت تهيأت لقبولها النفوس لسطوع نور العلم والمعرفة سيما وقد كملت فيهِ الاستعدادات التي توَّهلها للظهور . وغير خافٍ ان النفوس راغبة في العلم ترجو ان تنفتح امامها وسائل الارتقاء والعمل لتربية الشبيبة على تنمية عقول افرادها وتثقيفهم ليعملوا على ارتقاء امتهم وحفظها بعوامل المعرفة والعلم . وحتى تكون حلقة العلوم متواصلة مرتبطة

(١) راجع عدد ١٣٧٣ من جريدة مصر والمقطم الصادر في ٢٣ اغسطس سنة ١٩٠٠

ان شئت البحث عن هذه المدارس التجهيزيَّة رجعتُ والنفس آسفة لعدم وجودها بين المدارس الاهليَّة . بل هنالك شبه مدرسة تجهيزيَّة لاخواننا الاقباط الارثوذكس بالقاهرة وأُخرى مثلها للمرسلين الاميريكان باسيوط وثالثة هي عبارة عن قسم تجهيزيّ في مدرسة خليل اغا بالقاهرة توفق اخيرًا ديوان عموم الاوقاف الى انشائهِ . اما بين مدارس الحكومة فثلاث مدارس اثنتان بمصر والثالثة بالاسكندريَّة جميعها غير كافٍ لمن يتخرج من المدارس الابتدائيَّة المتقدم ذكرها . فضلاً عن مدارس الحكومة

فلذا شعرت النفوس الشريفة بهذا النقص من عهد ليس ببعيد . وكتبت الجرائد عن مسيس الحاجة اليهِ فصولاً ضافية . ولكن للآن لم يهتدِ الاغنياء في الامة الى السعي في انشاء مدرسة أَهليَّة من هذا القبيل مسلمين كانوا او مسيحيين لانهُ لا يزال في نفوس هاتين الطائفتين الظن انهُ من الواجب على الحكومة ان تنشئَ لهم من هذه المدارس ما يكفي عدد المتخرجين من مدارسها ومدارسهم الاهليَّة وفاتهم ان هذا عين الخطاء الذي كانوا يطالبون بهِ الحكومة قبل انشائهم المدارس الابتدائيَّة الاهليَّة

وليس من الصعب ان يتحد ارباب المدارس الاهليَّة على ايجاد كليَّة لهم او بالحري مدرسة تجهيزيَّة تسد عوزهم وتقوم بحاجتهم وهذا الواجب ملقى على عاتقهم وعاتق من يمكنهُ ان يجمعهم على هذا وهو اولى بهم من دائرة معارف اهليَّة فان هذا العمل الاوَّليّ هو الباب الذي يُدخل منهُ الى تلك وما علينا الاَّ ان نستفزّ حميتهم وغيرتهم ونسألهُ تعالى ان يوفقهم لصالح الاعمال ويجمع قلوبهم على حب الخير العام والقيام بما يعلي شأن الامة ويصلحها آمين

المدارس العالية

المدارس العالية في القطر المصري عددها قليل واحتياج القطر اليها عظيم لمحبة اهلهِ العلم في الوقت الحاضر اكثر مما في الزمن الغابر

وليس في القطر كلهِ من المدارس العالية الاَّ بضع مدارس للحكومة فقط واغلبها يدل على اعتناء المرحوم الحاج محمد علي باشا بالتعليم كما تقدم بيانهُ فللطب مدرسة واحدة حاضرها متأخر عما كان عليهِ قبلاً في زمن مؤسسها رحمهُ الله . ينفر من دخولها التلامذة لقلة انصاف الحكومة للمتخرجين منها . فان التلميذ بعد ان يحوز الدبلوما يتقاضى راتباً قدرهُ ثمانية جنيهات في الشهر . وهو مبلغ حقير لقاء عمل كبير . وناهيك بدراسة فن الطب فان لهُ من الصعوبة في الوقوف على حقائقهِ ما ربما ينقضي العمر ولا تنقضي معرفتها ومن الغريب لدى الحكومة ان تعطي اقلَّ مستخدم من عمالها كالكتبة وخلافهم عشرة جنيهات في الشهر والطبيب ينقد من فيوض كرمها ثمانية جنيهات او اقل فلا بدع ان قلَّ الراغبون في دراسة هذا الفن الجليل . ولا غرابة ان نرى اغلب الاطباء الموظفين في الجيش المصري من السوريين المتخرجين من مدارس الاميريكان في بيروت

اما عن مدارس الصناعة فليس للحكومة منها الاَّ اثنتان احداهما في القاهرة والثانية في المنصورة . اما المدارس الصناعية الاهليَّة فلا يوجد منهـا شيءٌ [1] ومدارس الزراعة لا يوجد منها سوى واحدة وهي ايضاً للحكومة . ولا يخفى عليك احتياج القطر وهو زراعي محض لمدارس الزراعة . وافتقار اهلهِ اليها اشد مما يتصور

(١) وغاية ما يعرف عن مدارس الصناعة الاهلية ان في عزم جمعية العروة الوثقى الخيرية الاسلامية انشاء مدرسة بالاسكندرية بما جمعتهُ من الاكتتاب اخيراً وبما فضل عن مال الجمعية البالغ قدرهُ ٤٣٥ جنيهاً الاَّ كسر الجنيه

الذهن بكثير مما سيظهر معنا فيما يأتي . وهذه المدرسة تخرّج منها في السنة الماضية تسعة تلامذة فقط اثنان منهم من الاجانب (اليونان) والسبعة الباقون من الوطنيين . فالاولان ابيا الاَّ الاستخدام في اطيانهما والقيام على غرسها وتنميتها . والآخرون استخدم بعضهم في بعض التفاتيش والبعض الآخر في مصلحة الدومين (١)

اما مدارس التجارة فلم يتح الله للقطر منها شيئاً كما لم يتح للشرق باسره بذلك اذ لو فتشت عن مدارس التجارة في كل بلدان المشرق لا تجد سوى قسم صغير في المدرسة الكلية الاميريكيَّة في بيروت "كان انشاؤهُ في اول هذا العام ولم يكن من قبل موجوداً" فلا عجب اذاً من تأخر التجارة على ما سيأتي القول عنها في موضعهِ (٢)

غير انهُ يوجد مدرسة للحربيَّة واخرى للمهندسخانة ومدرسة واحدة للحقوق من انشاء الحكومة . ومن امثال هذه الاخيرة يوجد قسم ليلي لتعليم الحقوق تحت مباشرة جماعة النزلاء من الفرنسويين . وهذا القسم كان سبباً مهمًّا لمن تعلم فيهِ من جماعة المستخدمين للانفكاك من قيد الاستخدام في الحكومة ومباشرة حرفة المحاماة . اما مدارس التلامذة "المعلمين" فلا يوجد الاَّ مدرسة منها واحدة وقسم للمعلمين بمدرسة التوفيقيَّة . ولا يوجد قسم ولامدرسة لاخراج المعلمات ليباشرنَ تعليم البنات ولذا كانت معلمات البنات المصريات من متخرجات مدارس سوريا

(١) جاء في تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠١ ان في هذه المدرسة الآن ٥٤ تلميذاً ٣٤١ منهم مصريون و ٢٠ اوربيون . اي نسبة من فيها من الاجانب اكثر بكثير من الوطنيين

(٢) بينما نحن نكتب هذا علمنا ان جماعة من اليونانيين القاطنين بمصر قد رأوا ان ابناءهم في حاجة شديدة لتعليم اصول التجارة وقواعدها حتى ينبغ منهم التجار . فعقدوا النية على تأسيس مدرسة وجعلوا رأس مالها ٢٠٠٠ جنيه في بادىء الامر تجمع بطريق السهام وكل سهم قيمتهُ اربع جنيهات فتأمل

هذه هي حقيقة حال المدارس العالية في القطر المصري . ومنهُ يظهر عظم الحاجة وشدة الافتقار الى العلوم العالية . حتى يرجع للامة بعض المجد والسؤدد الذي نعلمهُ من مطالعة كتب التاريخ من انهُ كان منا الاساتذة في الطب والكيمياء والطبيعة والعلوم الرياضيَّة والصناعيَّة والتجاريَّة وعلوم الحقوق والفلسفة والجغرافية وعلم الاقتصاد وغيرها

مدارس تعليم البنات

تعليم البنت فرض من فروض الانسانيَّة وركن من اركان المدنيَّة . لان الله اوجدها شريكة للرجل ومساعدة لهُ وعاضدةً اياهُ في شؤُونهِ فهو بدونها ناقص تدفعهُ الطبيعة نحوها لسد الخلل الموجود فيهِ . هذه سنة الله في الخلق ولن تجد لسنة الله تبديلاً . فاذا كانت عاضدة الرجل ومكملتهُ مهذبة معلمة مدبرة ذات اخلاق راضية اثرت على الرجل بل كانت اكبر عامل على انحيازهِ اليها والتمسك بعادتها والتخلق باخلاقها وبهذا عمار الكون

ومن الغريب ان تعليم البنت المصريَّة منذ بضع عشرة سنة كان لا يعرف عند المصريين كافة لجهلهم فائدة تعليمها ولزعمهم ان البنت اذا تعلمت وتثقفت ترجع بالضرر على العائلة وتكون في عرفهم اهلاً للمغازلة والمكاتبة مما يفسد الاخلاق . عكفوا على هذا الزعم مسلمين واقباط . لان عوائدهم واحدة واخلاطهم واحد لا فرق بينهما . وظللت الحال على هذا حتى الهم الله ولاة الامور وانشأُوا المدارس لتعليم البنات . قامت الحكومة اولاً بتأسيس مدرسة غير ان الامة كانت تنفر من هذه المدارس نفور السليم من الاجرب . حتى ان هذه المدارس كانت لا تحتوي

الاَّ على البنات اللقيطات فكان بعضهنَّ بعد ان يتعلمنَ القراءة والكتابة يتلقينَ دروس فن الولادة وتطبيب النساء في قسم خاصّ لهنَّ بمدرسة القصر العيني

اما الاجنبيات من جماعة النزلاء الافرنج في البلاد فكان لهنَّ مدارس اهليَّة مخصوصة يتعلمنَ فيها . الى ان وفدت بنات سوريا على مصر بعد ان تعلمنَ في مدارس الاميركان وغيرها في بلاد الشام . فاتحدنَ مع المدارس الاهليَّة للاميركان والفرير والجزويت وفتحنَ ابواب مدارسهنَّ للبنت المصريَّة . فكان الاقبال عليها من بنات سوريا لاغير . وظل المسلمون والاقباط على زعمهم بانهُ لا يجوز تعليم البنت لان التعليم مضرٌّ بها فلذا تقدمت البنت السوريَّة ايضاً تقدماً يسرُّ الخاطر على البنت المصريَّة مسلمة كانت او قبطيَّة

غير انهُ لما ظهر نفع التعليم والارشاد للبنت باجلى بيان ترك الاقباط المسلمين على زعمهم الذي كانوا متمسكين بهِ معاً . وتقدم قسمٌ من الاقباط لتعليم البنت فنجح وما زال الاقبال منهم يتلو الاقبال حتى ظهرت لهم منافع ذلك فاقبلوا عليهِ بعد ان كانوا مدبرين وادخلوا بناتهم في مدارس الحكومة ومدارس الاميركان والراهبات . الى ان ضاقت بهنَّ على سعتها فقاموا اخيراً « والفضل لجمعياتهم » وانشأوا دور التعليم الخاصة لهنَّ واخذت البنت السوريَّة تدأب على تعليم اختها المصريَّة

ومن مطالعة تقرير المرسلين الاميركان يظهر ان عدد البنات عندهم بلغ في سنة ١٨٩٨ — ٣٧٢٠ بنتاً كلهنَّ من بنات الاقباط الاَّ قليلات يُعْدَدْنَ بالعشرات من بنات الاسلام . وكذلك يظهر من الكشف الذي اخذناهُ من ناظر المدارس القبطيَّة ان لدى مدارس البطركخانة ٤٢٥ بنتاً وكذلك ظهر من الكشف الذي اخذناهُ عن مدارس جمعيات « التوفيق » ان لديها ما يقرب من الفين وخمس مئة بنت . اما لو اضفنا الى ما تقدم عدد البنات اللواتي في مدارس الحكومة ومدارس

الراهبات وغيرها بلغ عددهن ما يقرب من الثمانية عشر الف بنت مصريةً قبطيةً . كلهن يتعلمنَ نظام بيوتهنَّ . مع هذا العدد العظيم لا يتجاوز عدد البنات المسلمات اللواتي يتعلمنَ الفين وخمسمائة بنت لقلة اهتدائنا لتعليم البنت او توجيه العناية من موسرينا الى انشاء المدارس لها (١)

ولسوف تجني الامة القبطيةً عن قريب ثمرًا طيباً صالحًا هي في حاجة اليهِ مثلنا . اذ لو فرضنا ان هؤلاء الثمانية عشر الف بنت . هنَّ في سن العاشرة وعرفنا ان زواج البنت المصريةً على الاغلب في سن الثامنة عشرة عرفنا انهُ بعد مضي ثماني سنوات يكون لدى هذه الطائفة ثمانية عشر الف بيت منظم مرتب فيها من يساعدنَ ازواجهنَّ على مكافحة الزمن والفاقة اذا نزلت . فيها من يساعدنَ ازواجهنَّ على تربية ابنائهم . من يساعدنَ اهليهنَّ على معرفة صلاحيةً وتطهير المنزل وتنقية هوائهِ وترتيب الاثاث فيهِ مع التوفير في اللبس وغيرهِ . وهكذا يستمر تقدمهم على هذا المنوال اذ في كل سنة يخرج من بناتهم مثل هذا العدد

ودعنا نحن معشر الاسلام ننفر من تعليم البنت ونحتج بعدم جواز ذلك . ونقول بان المعلمات اللاتي هنَّ اهل لتعليم بناتنا لا يوجدنَ فيما بيننا وان وُجدنَ فعددهنَّ قليل في بلادنا المصريةً او انهنَّ غير اكفاء للتعليم والارشاد وان كان هذا الاحتجاج الصبياني مردوداً ومرذولاً لما نعلمهُ من ان في البلاد السوريةً التي هي على قرب منا كثيرات من المدرسات اللواتي مارسنَ صناعة التعليم . ولا بأس من احضار بعضهنَّ للتدريس والتعليم . حتى اذا وُجد من البنات عندنا من يكون

(١) استغفر الله . في عزم فرد فاضل منهم (احمد باشا المنشاوي انشاء مدرسة لتعليمهنَّ في طنطا وفي عزمهِ عند اتمامها الشروع في بناء مستشفى للمرضى والمساكين . انظر جوابهِ لحضرة الدكتور شبلي شميل المندرج في عدد المقطم الصادر بتاريخ ٤ اكتوبر سنة ١٨٩٩

في امكانهن القيام باعطاء الدرس والتعليم نستعيض بهن عن المدرسات السوريات وليس في ذلك عار علينا ما دام السلف الصالح تلقى العلوم العالية من كتب اليونان والرومان وغيرهم من الاعجام والامم السالفة . وهاتهِ السوريات اقرب الناس منا واحسنهن مودة الينا فهلاَّ نرضى ان تتساوى وسائط الترقي بين ابناء الوطن الواحد في هذا العمل الصالح والله سبحانهُ وتعالى يقول (من عمل صالحًا من ذكرٍ او أُنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينهُ حياةً طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون)

الجمعيات

وجدت الجمعيات في الاسلام حين وجد . وناهيك بالجمعيَّة الاولى . التي كانت اول جمعيَّة ومعاهدة اسلاميَّة . وهي المسماة "ببيعة الرضوان" عقدها النبي "صلى الله عليهِ وسلم" وبايعهُ فيها الاصحاب العشرة الكرام . بعد التئامها تحت الشجرة لجمع الكلمة وظهور الرسالة . ثم ان هؤلاء العشرة اصبحوا مئات والوفًا بعد ذلك . ولو رجعنا الى البحث والاستقراء لعلمنا كيف تجتمع الاجسام وتتألف القلوب وتجتمع الكلمة والمتأمل في سيرة الاسلام الاولى يجد ان الجمعيات لم يخلُ منها قطر من اقطارهِ وكانوا يقتبسون من نورها الاستبصار والاستبشار "حتى ان الآثم بعد دخولهِ اليها يخرج بالفوز ويحظى بالسعادة والقانط بدخولهِ اليها يخرج وهو اشد ما يكون رجاءً يرتاح الى العمل وتُفرغ عليهِ السكينة بعد الدهشة والراحة بعد الحيرة"

وتلك الجمعيات كانت في زمن انتشار المعارف والعلوم اما وقد عمت الظلمة بعد ذاك النور بتملك الجهل لنفوس الكل فحاضر الجمعيات الاسلاميَّة من التخاذل

على ما نعلم وعلى الاخص بمصر نعم لا ننكر فضل الجمعيات الموجودة حالاً مثل الجمعيَّة الخيريَّة الاسلاميَّة وجمعيَّة العروة الوثقى [1] والمساعي المشكورة . وجمعيَّة طبع الكتب العربيَّة . الاَّ انها ويا للاسف اقل من الواجب ان يكون في امة استولى عليها الجهل بعد العلم والفساد بعد الرشاد حتى انحط ابناؤُها وبناتها الى ما تراهُ في حاضرها من فهمهم معنى الغرض من الجمعيات الى قصد الضحك والمجون والتكلم "بالانقاط" يتلقاها الكل من الاوباش بالقهاوي والافراح بدلاً من مجتمعات العلم والعرفان . ومن الغريب ان تدوم هذه الجمعيات الهزليَّة ولا تدوم تلك الجمعيات المفيدة التي شرع فيها بعض النبهاء . فانك لو شئت تعداد الجمعيات التي قامت لغرض شريف ثم عفت آثارها لعجبت . وعلى الاخص اذا علمت ان الذين انشأُوها من ابناء المدارس ومشايخ الازهر وبعض رجال الفائدة والعمل . وما سبب عفاء آثارها واندثارها الاَّ عدم تكوينها على اساس متين فلذا ينحل عراها في أَقرب وقت وتصبح في خبر كان .ولو كان منشئو الجمعيات التي عفت آثارها ممن ذكرنا فقط لالتمسنا لهم عذراً يقبل ولكن ما قولك في جمعية ظهرت واختفت بسرعة عجيبة . ولو كان من اعضائها فحول العلم عندنا ورجال الادب منا . اجتمعوا على قولهم في مجتمع دعوهُ (مجتمع اللغة العربية) فما أَثمر ذلك الاجتماع بشيءٍ سوى الغوص في بحار اللغة واخراج بعض كلمات [2] قالوا باستعمالها بدلاً من كلمات دخيلة في اللغة العربية

(١) هذه الجمعية تأسست في شهر شوال من سنة ١٣٠٩ هجرية

(٢) واليك بعض تلك الكلمات

مرحى	بدل	برافو
مدره	"	افوكاتو
المسرة	"	التيليفون
عم صباحاً	"	بون جور

هذا المجتمع ايضاً عفت آثارهُ بعد التئامهِ مرتين او ثلاثاً ولو استقصيت حقيقتهُ لوجدت عدم ثبات اعضائهِ في مجتمعهم هذا انما هو من اختلافهم في فهم معنى لغتهم ولذا كان انحلالهُ سريعاً . وغاية ما يمكننا ان نقول اذا تكلمنا بوجود جمعيات علمية بيننا انهُ يوجد جمعية واحدة طبية مصريَّة لاغير . هذا فيما يتعلق بالجمعيات التي يطلق عليها لقب جمعيات العلم والادب . اما الجمعيات التي نحن في حاجة اليها حقيقة اي مثل جمعيات المحاماة والتجارة والصناعة لنموها ولزيادة الكسب ووفرة الربح من طريقها الصحيح فهي معدومة بالمرة من بين المصريين جميعهم . ولم يفكر احد منهم للآن في انشاء جمعية من هذا القبيل . ولو كانوا يعلمون بوجودها بين ظهراني اهل التجارة والصناعة من جماعة الافرنج النزلاء[1] الذين لم يقتصروا عليها بل عمت الجمعيات عندهم حتَّى منعت القسوة عن الحيوان

ومع كل هذا النقص المعيب نقول انا قد دخلنا في دور التقدم بفهم لوازم الحضارة والتمدن . ونحن في الحقيقة ليس منا غير القليل في الجمعية الجغرافية الخديويَّة وما بقي فيها فمن نزلاء البلاد

هذا ولا مندوحة لنا من التنبيه على امر ينبغي التفطن لهُ والتنويه بهِ اذ في ذكرهِ ما يسر الخاطر من نحو اخواننا الاقباط الارثوذكس . فان لهؤلاء الاخوان ما حقنا ان نغبطهم عليهِ ونتمنى لنا حقيقة من حقيقتهم الدالة على تقدمهم علينا . واليك النظر لجمعياتهم التي منها "التوفيق" التي تحتوي على نبهاء هذه الطائفة المحبوبة

عم مساء	بدل	بون سوار
البهو	"	الصالون
قفاز	"	الجوانتي

(١) للانكليز وغيرهم جمعيات تجارية لها على تجارتهم وصناعتهم فضل كبير ومن اهم جمعياتهم الجمعية التجارية الانكليزية بالاسكندرية

هذه الجمعيَّة نشأت في سنة ١٨٩١ ميلاديَّة بهمة بعض الافراد . وثمرت عن ساعد الجد وجعلت رائدها الثبات والاستقامة فنجحت النجاح الباهر الذي نودُّ دوامهُ لها . وكان من ثمرة ثباتها انها ابطلت عوائد كثيرة كانت مضرة بامتها وسهلت عليهم كثيرًا من الاعمال واسست جمعيات فرعيَّة تابعة لها في سائر مديريات القطر . وبهذه الواسطة اوجدت لابناء امتها المدارس العديدة للبنين والبنات . وسهلت عليهم نقل موتاهم الفقراء بواسطة مركبات اعدتها لذلك وهي تصدر مجلة اسبوعيَّة تدعى " التوفيق " تملأُها كل اسبوع بالحث والترغيب في اقتباس العلم والاستضاءة بانوارهِ . واخيرًا اوجدت للجمعيَّة سراي عظيمة مساحتها ٦١٠٠ متر وفي النيَّة انشاء مستشفى لمعالجة الفقراء مجانًا . توصلت هذه الجمعيَّة الى عمل كل ما ذكر بهمة اولئك الافراد وفي مقدمتهم سعادة رئيسهم الدكتور ابرهيم بك منصور وبهمة المحسنين من ابناء الطائفة الذين تبرعوا وما زالوا يتبرعون دوامًا بما فيهِ قوامها ونجاحها . واولئك العاملون على ترقي الامة بالوسائط اللازمة للترقي اوجدوا ايضًا مطبعة خصوصيَّة للجمعيَّة [1] ونواديًا ومحلاًّ لمركبات دفن الموتى وقد اشترت الجمعيَّة اخيرًا مركبات للافراح فدل ذلك دلالة واضحة على حسن المستقبل الزاهر الزاهي . وعدا جمعيَّة التوفيق يوجد جمعيات اخرى مفيدة منها جمعيَّة المساعي الخيريَّة التي غرضها جمع الاحسان وتوزيعهُ على الفقراء وهذه الجمعيَّة لها وقف تحت ادارة سعادة الفاضل باسيلي بك تادرس المستشار في محكمة الاستئناف . ريعهُ يصرف على الاعمال الخيريَّة كما تقدم

وجمعيَّة النشأة القبطيَّة تهتم بالفقراء ايضًا ولها اعمال نافعة من اهمها اصدار

(١) لمطبعة جمعية التوفيق هذه فضلٌ يذكر على جريدتي مصر اولاً والوطن ثانيا . فانهما عند اول ظهورهما كانتا تطبعان في هذه المطبعة

نتيجة سنوية . وجمعية التوفيق بمصر القديمة تابعة للجمعية المركزية وهي مخصصة للوعظ وتحتفل كل يومي الجمعة والاحد بالقاء المواعظ وتفسير الاناجيل للشعب ولها ايضاً اعمال خيرية ممدوحة . هذا وفي الوجه القبلي لهم جمعيات كثيرة سواء كان في بلد او قرية . ومن اشهرها جمعية الاعتدال باسيوط التي يبلغ عدد اعضائها المائتين كلهم ساعون على الحض بنبذ شرب المسكرات او الاعتدال فيهِ . ونحن لا نزداد الاَّ شغفاً على الادمان في الخمر . وهي محرمة عندنا . كما اننا لا ندري الى متى نبقى نشاوى ويبقون ساهرين مجدين في مراقي العلى والتوفيق وكلنا امة مصرية واحدة . نسأَلهُ تعالى الهداية لنا جميعاً الى اقوم طريق

الاستخدام والمستخدمون

الاستخدام في الحكومة الآن داءٌ سرى مكروبهُ في جميع الشبان حباًّ بالمظاهرات الفارغة . واغلبهم غير ناظرين الى نتائجهِ التي هي على الغالب غير مفيدة للوطن فائدة تذكر لانها مدعاة للكسل وغير سائقة كما يراد للعمل . فترى الشبان بعد ان يفارقوا المدارس كلهم آمال في حياة الاستخدام . آمال مكذوبة يظنون انها تليق بشرفهم او علمهم وتقيهم من طوارق الفاقة والفقر او تعلي شأنهم وفاتهم ان من اقدم عليهِ يرهن الحواس الخمس والحريَّة والموهبة الطبيعيَّة براتب طفيف يمنع عنهُ الجوع ويوجد في النفوس اليأس والخمول . والذي يزيد الطين بلة ان الوطن العزيز لا يعود عليهِ ادنى فائدة من استخدام ابنائهِ خصوصاً في الاحوال والظروف الحاضرة التي لا تسمح لشباننا ان يتطلعوا الى وظائف عالية فيها حقيقة تكون خدمة الوطن والامة خدمة صحيحة مفيدة ثابتة دائمة . لان تلك بايدي قوم ساهرين على مصالحهم ونحن عنها غافلون

ومن الاسف العظيم ان هذا الامر هو مرض مصر العام المسبب منهُ عدم تكوين الثروة في القطر والمقعد بالهمم والقاتل لصفة الاعتماد على النفس واجمال القول انهُ قد كان يصح ذلك الاستخدام قبلاً وعند ما كانت وظيفة الاستخدام من اجل المهن واسماها . فان المستقصي سبب حب الناس الاستخدام قبلاً ووضعهم انفسهم بانفسهم في موقف المسخرين لقضاء مآرب غيرهم حتى استسلموا للقضاء وتركوا جميع الامم تتسابق في مضمار الجد والارتقاء وهم لاهون . ظنّ ان الحكومة منفصلة تمام الانفصال عن الامة . ورسخ هذا الاعتقاد في نفوسهم ان الحكومة هي الهيئة المخدومة والامة هي الهيئة الخادمة . مع ان الحال بضد ما ذكر . نعم كان بعض الشيء من ذلك في الزمن الماضي منذ عشرين سنة واكثر اما الآن فالحكومة وحكامها يعلمون انهم خدام للامة لا سادتها وتساوى الصغير والكبير امام الحق والقانون وأمن الناس على ارواحهم واموالهم وحقوقهم كلها واصبح التاجر بتجارتهِ والصانع بحرفتهِ والمزارع بزراعتهِ كل واحدٍ يفيد الامة اكثر مما يفيدها بالاستخدام . غير اننا نقول ان الاستخدام في مثل المراكز العالية كالقضاء والادارة واجب لضرورة ذلك ولانتظام هيئة الحكومة . ولكن اصحاب هذه المراكز مسأولون امام الامة بحفظ مراكزهم التي هي وديعة من الامة ويجب المحافظة عليها طبقاً للعدل والحق لا ان يتبعوا اهواءهم في وظائفهم ليحل بدلاً عنهم الاجانب فيسوسوا الامة بغير ما يلزم ان تساس بهِ ولكنّ هؤلاء ليسوا المقصودين منا بالقول بل المقصودون هم اولئك التعساء الذين لا تفسر تعاستهم على ظواهر احوالهم

واولئك المساكين من الناس الذين وصلوا الى وسطٍ من حالة الحياة . ولا يزالون ينظرون بلهف الى ما فوقهم من الدرجات فرهنوا مستقبلهم كلهُ على نوال مرغوبهم بطرق الاستخدام . وهم يظنون انهم بلغوا بها السعادة في مكان فسيح

الرحاب قد تحجب بالعزة والمكانة ولو كانوا ضمناً يشتغلون كالآلة التي تتحرك من نفسها في قضاء اغراض ومآرب مديريها . اذ هم لا يعرفون الاَّ ان يأتوا صباحاً في الوقت المعين ويباشرون عملهم الذي يندر ان يتغير قليلاً ويذهبون الظهر الى بيوتهم فيأكلون وينامون ولا همَّ لهم الاَّ النزول ساعة العصر من بيتهم الى القهاوي والاندية لتمضية الوقت واذهابهِ سدًى بلا جدوى ولا منفعة خصوصيَّة او عموميَّة. وكل يوم هم على هذا المنوال . والمستخدم واحد امس واليوم وغداً

ثم يحتجون لعدم زيادة مرتبهم ويلحون وهم باقون في مراكزهم . ولا يخطر ببالهم ان يعدوا انفسهم لعمل آخر ولذا يفضّلون البقاء على حالة واحدة ولو كانت من مرادفات الموت . وقلَّ ان ترى مستخدماً يحرص على سيرتهِ وصيتهِ ولذا هم في المجتمعات وفي طرق الخلاعات وادمان المسكرات لا يجارون ولا يباروون . ثم يشكون من حالتهم المعيشيَّة . وما شكواهم في الحقيقة الاَّ من تبذيرهم واسرافهم بلا ضابط حتى فاقوا الحد عن بقيَّة افراد الامة وقد فاقوا غيرهم في التورط في الدين على اختلاف درجاتهم ومرتباتهم . ولا ذنب للحكومة في هذا بل الذنب كلهُ واقع عليهم . اذ الموظف منهم صغيراً كان او كبيراً يعتبر نفسهُ انهُ من طبقة خلاف طبقات الامة فلذا يعيش في الانفاق الكثير على المنازل والخدم والحشم ومما يضحك ذكرهُ تقسيمهم لايام الشهر على ثلاثة اقسام فهم يعبرون عن العشرة ايام الاول منهُ " بالايام البيض " نظراً لرواجهم من قبض مرتباتهم . والعشرة الثانية " بالايام الحمر " لانهم في هذه الايام الحمر يضطرون لصرف ما هو مقتصد معهم والعشرة ايام اواخر الشهر " بالعشرة السود " لانهم يقترضون من اهليهم او من جماعة المرابين " واكثرهم جماعة الدخاخنيَّة الاروام " ولذا اذا قابل احدهم الآخر فقبل ان يسلم عليهِ يسأَلهُ ان كان اللايام عليهِ تأثير ثم ان البعض منهم يحتاط

لذلك فترى جيوبهم بالدراهم محملة دائمًا ساعة العصر والبعض منهم لا يبذرون في اوائل الشهر ولا يسهرون ويوفرون الى اواخر الشهر اسرافهم وتبذيرهم خوفًا من تبكيتهم بتأثير الايام عليهم — ومَن من الناس لم تؤثر عليهِ الايام — والمستخدمون كلهم حساد بعضهم لبعض حتى ان بعضهم اذا عرف شخصًا لاول وهلة يسأله ما هي وظيفتك في الديوان وكم هو مرتبك في الشهر . فان وجدهُ متقدمًا عنهُ اسف على حالتهِ وتعاستهِ وسب مصلحتهُ ووظيفتهُ نادبًا الزمن ومصائبهِ التي انكبت عليهِ . وان وجدهُ دونهُ سقط من عينهِ ولم يعد يعتبرهُ ان رآهُ مرة اخرى " وقد وقع لنا من قبيل ما ذكرنا شيءٌ كثير " . وهذا امر سببهُ ان السعد والنحس ملازمان للمستخدمين من عهد قديم فان بينهم فئة تعرف بالفئة الداخلة هيئة العمال وفئة تعرف بالخارجة عنها [1] وللاولى حقٌّ في المعاش بعد ان تعمل في الخدمة مدة معينة ولو كانت الاولى على بساط الراحة . والثانية محرومة منهُ ولو انهكها النصب واذابها العناء . وعلة ذلك تعدد الاوامر التي اصدرتها الحكومة في هذا الشان من قديم وحديث [2] وليس من دليل اوضح من الدليل الآتي على ظلم المحاباة بين المستخدمين

كان في مصلحة البوستة حتى سنة ١٨٩٧ رجلان خدما فيها اكثر من اربعين

(١) في الوقت الحاضر اغلب مستخدمي الحكومة في نظارة الاشغال ومصلحة السكة الحديدية المصرية والبوستة والتلغراف وغيرها من هذه الفئة لا فرق بين الوطنيين والاجانب فانهم كلهم " ظهورات "

(٢) بفضل هذا التمييز في الازمنة الماضية نال كثيرون مع عائلتهم شيئًا كثيرًا من المعاش وهم الآن يتنعمون بهِ وان كانوا لم يفيدوا الامة بشيء بل قد يمكن انهم اضروا بها واستعبدوا عباد الله وسلبوهم اموالهم واطيانهم . ولا يزال باقيًا منهم من لهُ في المديريات ما ينيف على المئة او المائتين فدانًا وعن خمسين او مئة جنيه شهريًا في " الرزنامه "

سنة بامانة واستقامة منذ عهد جنتكان الحاج محمد علي باشا ووظيفتهما كانت اخذ البريد سعياً على الاقدام من القاهرة الى الاسكندريَّة وذلك قبل انشاء السكك الحديديَّة . وكثيرًا ما كان احدهما يسعى ليوصل مراسلات الولاة السالفين "وبالاخص المرحوم سعيد باشا" ولا يتأتى لهُ ذلك الاَّ بعد التعب الشديد . فقد كان يذهب احدهما الى البلدة التي يقال لهُ ان بها الوالي فلا يراهُ فيها ويعلم انهُ ذهب الى غيرها فيتبعهُ اليها . وقد كان نصيب احدهما بعد ان هرم وشاب ان يعين ليوصل الدراهم والمراسلات من العاصمة الى بولاق مصر ذهابًا وايابًا ثلاث مرات في اليوم . ولما وهنت رجلاهُ وخارت قواهُ عين في بوستة مصر يشتغل فيها وعمرهُ قد ناهز الخمسة والسبعين فمكث مدة يشتغل من الساعة السادسة صباحًا الى الحادية عشرة مساءً وليس لهُ يوم راحة في الاسبوع كلهِ . ثم عجزا عن القيام بخدمتهما فتراءى للمصلحة ان تعزلهما فأُمرت بذلك ولو لم تقرر شركة الاقتصاد والتعاون الخيري في البوستة التي أُسست بهمة سعادة مديرها العام "يوسف باشا سابا" اعطاءهما مرتبهما سنة كاملة رأفة بهما وبعائلتهما لذهبا ولسان حالهما يقول مع باقي امثالهما من المستخدمين

ما ذا لقيت من الدنيا واعجبها اني بما انا باكٍ منهُ محسودُ

في هذا الباب الضيق المنافس المملوء بفقدان الشهامة المضيع لزمن الشبيبة المصريَّة . المبعد لنمو الثروة . المربي في النفس الاعتماد على الغير . يُلقي الشبان المتعلمون انفسهم بايديهم ولا يسعون في طرق ابواب المعايش الاخرى كالتجارة . والزراعة والصناعة فانسلخوا عن كل شيءٍ من موارد الكسب الصحيح والعمل المفيد ولم يبقَ لهم قوام ذاتي الاَّ التعلق باذيال الحكومة واهداب الوظائف وهيهات لهم ان ينالوها الاَّ بشق الانفس واراقة ماء الوجه وليس ما ينالونهُ مما يذكر ولكنهُ

من سقط المتاع وما زالوا على هذا الحال حتى فقدت الامة اواسطها من المتعلمين . وباتت في انين دائم . وذل مهين . لطف الله بعبادهِ . والهم شبابنا الى ما فيهِ صالحهم وصالح الوطن العزيز . انهُ على كل شيءٍ قدير

التجارة

قال صلى الله عليهِ وسلم (ما أملق تاجر صدوق)

وقال عليهِ الصلاة والسلام (رحم الله رجلاً سمحاً قاضياً ومقتضياً بائعاً ومشترياً)

وقال ايضاً من بورك لهُ في شيءٍ فليلزمهُ

باب الاتجار مفتوح لكل داخل . وليس كباب الاستخدام يخص بالناس قلائل . وثروة البلاد موقوفة على التجارة . سواءٌ كانت داخليةً او خارجيةً . ويشترط على من سلك سبيلها ان يكون سيرهُ فيها على علم وبصيرة . وان يكون عندهُ مال يدير حركة عملهِ التجاري . وبالمال ينتهز الفرص كلما ظهر لهُ شيءٌ رخيص يمكن الاكتساب منهُ . وعلى هذين الشرطين قوامُ التجارة

وللتجارة شروط أُخرى لازمة لكل تاجر وهي الاتصاف بصفاتِ الصدق رائدها في المعاملة ليستميل بها قلوب معامليهِ . والاتصاف بالامانة لمن يترك شيئاً عندهُ ليباع على ذمتهِ . فان في ذلك مجلبة لقصد الناس لهُ من اقصى الجهات . وبالتمسك بالتقوى وما أمرت بهِ الشريعة . حتى تكلل تجارتهُ بالبركة ورزقهُ بالتيسير وبالاقتصاد حتى تنمو مكاسبهُ . وتظهر نتيجة تعبهِ وتزيد الرغبة فيهِ لتوسيع نطاق تجارتهِ . وبالبعد ما امكن عن الدَّين حتى لا تشتغل افكارهُ بما لا طائل تحتهُ — وأحب شيءٍ الى الانسان ان تعطيهُ ولو من مالك وابغضهُ ان تأخذ منهُ ولو حقك — ومن أهم شروطها انتظام معيشة الانسان فيها على حسب القواعد الاقتصادية وترتيب

شؤون اعمالهِ بحيث لا يتطرق اليها الاختلال والوهن وسوء الادارة فان هذا مما يحبط عملهُ ويجعل الناس غير واثقة بنجاحهِ

هذه هي شروط من يقدم على التجارة . وفيها لعمري مجال فسيح لاظهار موهبة العقل . واستثمار ما بقي من المواهب . التي اودعها الله في الانسان "والعقل في موضعهِ يمكنهُ ان يعمل من النار جنة ومن الجنة نارًا[1] "وناهيك بما في التجارة من اللذة المتعاقبة عقب كل نجاح يثمرهُ الاجتهاد فيها . اسأل التاجر المستجمع للشروط المتقدمة ترَهُ يقص عليك ما منح من العطايا وما وهب من الارزاق . ولكن لا يغرب عن فكرك انهُ ما نال ذلك عفوًا . بل نالهُ باهتمامهِ الاهتمام الذي هو شأن كل متجلد ثابت لا يؤخر عمل يوم الى غدهِ . حتى انهُ يحرص كل الحرص على عملهِ توقعًا للاحدوثة الجميلة وهي من امدح الخصال في الرجال وكفى التاجر ان يقال فيهِ ان فلانًا متوقد الفؤاد ذا حركة ونشاط يقدم على جلائل الامور

والتجارة حياة كل أُمة . وما امتازت دولة على أُخرى الاَّ وقد كان للتجارة الفضل الاكبر في سعادتها . تأمل تاريخ المشرق الماضي ترَ فضل اعتزازهِ الماضي انما هو راجع لاشتغال اهلهِ بالتجارة . وتأمل ضعفهُ الحاضر ترَ سببهُ ترك اهلهِ للتجارة . ولدينا حاضر اوربا فالدولة الاكثر اتجارًا لها السلطان الاول بين سائر الدول تدوم لها المنعة والسلطان ما تاجر أهلها مع الامصار والاقطار

ومصرنا وان كانت ارضها زراعيَّة يشتغل غنيها وفقيرها بالزراعة دون التجارة والصناعة . الاَّ انها منذ خمسين سنة كان اهتمام اهلها بالتجارة عظيمًا جدًّا فانهُ في تلك الازمان قام من اواسط اهليها من احترف التجارة فنجح وافلح وكان ذلك النجاح الباهر حينما استعمرت حكومتنا السودان في ازمنة الولاة الاول من العائلة

(١) قول شكسبير

العلويَّة الحاكمة . ذلك انهُ ذهب البعض الى السودان للاتجار فكان ذهابهم سبباً لموارد اليسر . ومنهلاً لسائغ الرزق . ارجع بنظرك قليلاً لتعلم توسُّع المتاجر في هاتيك الاصقاع سنة بعد سنة . ولنا شاهد على نمو التجارة في ذلك الاوان وهو قلة الوارد الى البلاد ووفور الصادر منها . مع ما في ذلك الزمن من العسف والجور وعدم سهولة المواصلات . ولا يزال بعض اولئك التجار الذين اتجروا بين القطرين في قيد الحياة يرزقون . ويقص البعض منهم عليك حديث تجارتهم بالاصناف وغيرها . كما قد يقص ايضاً الطرق والمسالك الوعرة والمتاعب التي اجتازها في ذهابهِ وايابهِ وهم يعدون لك ان شئت المحال التجاريَّة التي كانت واسعة المتجر قبل عهد الدراويش حتى انهُ كان للتجارة مجالس مشهودة . غير انهُ قضت الحال بانفصال السودان سنة ١٨٨٤ ميلاديَّة فاعتزل كثيرون الاتجار وباشر بعضهم الزراعة . وما من مزارع كان تاجرًا الاَّ وقد زادت زراعتهُ واتسعت بتقدم مستمر ونجاح باهر لكونهِ وجد من نفسهِ ميلاً وارتياحاً الى العمل والكسب

اما من بقي في تجارتهِ الى الآن فقد اكتفى بالاسم ولو كانت تجارتهُ في اشياء قليلة كلها يجلبها الاجانب لهُ من الخارج . هذا تاجر القماش صاحب الوكالة الكبيرة في مصر ترد اليهِ الاقمشة باسمهِ وهو يخزنها في مخزنهِ ويبيعها الى عملائهِ الاصاغر لهذا مئة ثوب ولذاك خمسين ثوباً بزيادة مبلغ طفيف في المئة عما وردت اليهِ . وياليتهُ يقبض الثمن فورًا . بل يقيدهُ في دفتر الذمات ويدفع اليهِ العميل ثمن ما اخذهُ اقساطاً بمواعيد متفاوتة كما هو ايضاً مع الفوريقة مقيد بكمبيالات يدفعها عند استحقاقها بمواعيد متفاوتة ايضاً . وما يقال عن تاجر القماش يقال عن باقي التجار حتى تجار الزيتون . اخبرني صديق "كمسيونجي" لاحدى الفوريقات الانكليزيَّة للزيوت ان تجار مصر يشترون الزيت والشحم بمعرفتهِ من الفوريقة وهو

عند ذهابهِ الى الارياف يجدهم يبيعونهُ باقل من ثمنهِ الاساسي . اي ان كانوا قد اشتروا الرطل الواحد بثلاثة غروش ونصف غرش يبيعونهُ بثلاثة غروش

وتجار الارز يفعلون كذلك فانهم يجلبونهُ من الاسكندريَّة ورشيد ويدفعون عليهِ اجرة السكة الحديد ثم يبيعونهُ في مصر بمثل سعرهِ في الاسكندريَّة واذا اعترض عليهم معترض عارف بسعر البلدين وسألهم عن مكسبهم . احتجوا بانهم يبيعون بجانبهِ صنفين آخرين من العطارة يربحون فيهما ربحاً عظيماً

وغالبهم جاهل بمعرفة اسعار اصناف البضاعة وقليل منهم يعرف غلاء الثمن لقلة الموجود فانك لو ذهبت الى تاجرين مثلاً يتاجران في صنف واحد وساومت احدهما على شراء شيء منهُ أخبرك بثمن ثم انت لو ذهبت الى آخر لاخبرك بثمن اقل من الاول وان استقصيت السبب علمت انهُ يبيع لك مطلوبك تكيلاً بجارهِ او انهُ قد يكون مستحقاً عليهِ دفع بعض الكمبيالات فيضطر الى البيع بالرخيص . ولقد عرف بعض اهالي الريف ذلك منهم فلذا قد ينتقل احدهم من مخزن الى آخر ليساوم السعر فمن رآهُ يبيع بالرخص عن جيرانهِ يشتري منهُ . وقد يرضى التاجر منهم ان يكون مكسبهُ صناديق الفوارغ كتجار الكبريت والشمع مثلاً . وهم مع ذلك يفتخر بعضهم على بعضهم بكثرة البيع ولا يشعرون بخطائهم . الاَّ اذا حان أجل دفع الكمبيالات فتراهم يتململون ويشكون وتراهم يرهبون محصلي البنوكة وقت مرورهم بهم وقد يظهرون لهم غاية الخضوع ومنتهى الذل والمسكنة

ولذلك اسباب غير ما تقدم وهي ان بعضهم اذا اتسعت تجارتهم بالقدر "لا بالمعرفة" يأخذون في مشترى العقارات التي كثيراً ما تكون داخل الحواري والازقة . حتى يقال ان السيد فلان صاحب ملك في الجهة الفلانيَّة والجهة الفلانيَّة . وقد يشترون هذه الاملاك بالتقاسيط ويفضلون دفع اقساطها على دفع

ما هو عليهم للفوريقات ولو كان فيما ذكر شهرة الاسم ونجاح العمل وفاتهم معرفة الربح من الطرفين . اذ مهما بلغت مكاسبهم من الاملاك لا تتجاوز ستة في المئة . اما في المتجر فيربو الربح عما ذكر . اذ لو فرضنا ان المقدار الف جنيه واتجر بهِ ووضع تحت امر التاجر لاربحهُ اضعاف اضعاف ما ذكر ولأغنى التاجر عن التذلل يوماً لمحصّلي البنوكة ويوماً للقومسيونجي . ولوجد ما يدفع منهُ وقت الحاجة . وهو لو شغلهُ لامكن التاجر الاشتراء بالنقد وبالنقد يمكن خصم ما يساوي أقلهُ ٥ في المئة وفي خلال السنة يمكنهُ بهِ ان يشتري ثلاث او اربع مرات فيخصم لهُ ما ذكر أعني اربع مرات في خمسة تساوي عشرين في المئة بدلاً من الستة التي تعود من شراء الاملاك . وناهيك بالتاجر الذي يحناط في عملهِ في اخذهِ وعطائهِ فانهُ يشعر بلذة حقيقيَّة في عملهِ فضلاً عن عدم انذارهِ بالبرتستو يتلو البرتستو وبالتهديد بحجز الاملاك وبالبعد عن الافلاس المهين الذي يكون معرضاً لهُ كل حين

وليس للتجار حيلة او آراء محكمة في مباشرة تجارتهم بل حيلهم وآراؤهم لا تحضرهم الاَّ اذا وقعوا في الامور المتقدمة . والاَّ فمعظمهم يحضرون الى محالّهم ضحى ويتركونها عصراً لحبهم النوم وايثارهم الراحة على التعب . ولداعي انهم كثيروا الاشتغال في اصناف يجهلونها حتى في لفظ اسمائها يعتمد البعض منهم على الموظفين الاجانب فيشاركونهم في الربح ولو كانوا هم اصحاب رأس المال . او يستخدمون لديهم جماعة من الرجال العجائز المتقدمين في السن اهل السعال واحديداب القامة الذين ربما قد ينسون اكل الزاد اذا حضر . ويعطونهم مرتبات تافهة وهم مع ذلك يأتمنونهم على مخازنهم التي كثيراً ما يكون فيها عشرات الالوف من الجنيهات . نعم انهم قد انتبهوا اخيراً واستخدموا بعض الشبان ولكنهم يخلون عليهم ايضاً بدفع المرتبات الكافية لهم وهؤلاء لقلة المرتب يلتزمون بالسير في طريق تأباهُ الامانة والعفة .

وكثيراً ما يلاحظ التاجر من سيرهم وسلوكهم انهم لا يخدمون بالشرف والاستقامة ولكن لكسلهم ولتصورهم انهُ لو خرج المستخدم تقف حركة عملهم يتركونهم يعبثون باموالهم وهم ينظرون نظرة الحامل الابله . وأغلب مخازنهم بعيدة عن محلات بيعهم وشرائهم فاذا جاءهم مشترٍ نادوا على خادمهم ان يأخذ المفاتيح ويسلم عدد كذا من صنف كذا فيذهب هذا ولا يكاد يصل الاَّ بعد ساعات لبعد المخازن وفي هذه الاثناء قد يتواطأ احدهم مع الشاري اما بتسليمهِ صنفاً غير الصنف المطلوب او باعطائهِ عدداً اكثر من مطلوبهِ لقاء مبلغ جزئي يعطى من الشاري للمخزنجي . ولسبب عدم علمهم بحقيقة ما في مخازنهم او لكثرة ما يوجد من الصنف المطلوب فلا يمكنهم ادراك ما يسلم الى الشاري . هذا فضلاً عن عدم معرفتهم محال مخازنهم وقلَّ من يدخلها منهم في السنة مرة . ولو دخلها احدهم فعز عليهِ معرفة ما تحتويهِ لقلة الترتيب وسوء الانتظام . ولذا نرى كثيرين منهم يكتفون بقولهم لنا مخازن في الجهة الفلانيَّة

وهذه المخازن أغلبها وكالات مهجورة يمكن السطو عليها في اي وقت كان . فضلاً عن عدم تسجيلها منهم امام شركات الحريق الامر الذي كثيراً ما تذهب بسببهِ تجارة احدهم كذهاب امس الدابر

وهم للآن جاهلون طريقة تصدير بضائعهم سواءٌ كان لداخليَّة القطر او لخارجهِ وجاهلون حتى طريقة ارسال طرود البوستة مع تحويل الثمن عليها . مع ان المصلحة المذكورة مهتمة في هذا الباب بتسهيل عظيم بغية رواج وانجاح التجارة التي يمكن ارسالها بصفة طرود بوستة . وللمصلحة كتاب الدليل فيهِ كل ما ذكر بابسط عبارة ولكن لا اهتمام لاحدهم بهِ مثل اهتمام جماعة تجار الاجانب . فانهم ينتظرونهُ بالساعة حتى يقتنوهُ ويدركوا ما جاء فيهِ . وثمنهُ لا يتجاوز عشرة مليمات وليس للتجار

الوطنيين اعتناءٌ بتجارة السجاير التي تصدر الى الخارج مع ان في ذلك ربحًا عظيمًا لهم وان وجد منهم اشخاص فلا يتجاوز عددهم الاربعة وفي كل شهر يتأخرون عن شهر . فانك لو راجعت ما تصدر من محالّهم في هذه السنة وقابلتهُ على السنة الماضية لظهر لك كبر العجز بخلاف نجاح هذه التجارة عند جماعة اليونان والارمن . ويكفي التجار الوطنيين ان تنسب السجاير اليهم وانها مصريةٌ من عندهم [1] وليس النجاح مع جماعة الاوربيين قاصرًا على السجاير فقط بل تناولوا كل شيءٍ يربحون منهُ حتى تصدير بيض الدجاج بعد جمعهِ من البنادر والقرى بثمن رخيص [2] وحتى البلح فان لهم فيهِ مكسبًا كبيرًا لانهم يصدرون "العمري" منهُ الى الخارج في علب مخصوصة من الزنك يكون فيها البلح مرصوصًا مرتبًا . وغير ذلك من الاصناف الاخرى كالبرتقان والتين والشمام . هذه ابواب السودان قد فتحت والحكومة فيهِ قد انتظمت واسباب الامن فيهِ قد استتبت فما انا لا نرى تلك المحال التجاريَّة المتقدم ذكرها قد عادت الى اصلها . ومالنا لا نرى لنا في تلك البلاد نصيبًا من التجارة كالسابق حتى لا يشكو التجار كثرة الموجود وقلة الطلب . وحتى لا يشكو التاجر من الدهر ومعاتبة الايام لانها تحرمهُ خيرات بلادهِ وتغدق نعمها على غيرهِ من جماعة الاوربيين هذه امور يمكننا الاجابة عليها بقولنا ان من يتعاطى التجارة منا ليسوا في الاحتياط

(١) بلغت كمية المتصدر من السجاير المصرية سنة ١٨٩٨ م ٢٤٦٩٢٨٣٧٤ سجارة وسنة ١٨٩٩ م ٨٩ ٢٩٤٩٠٥ سجارة كلها لجماعة التجار من الارمن واليونان

(٢) بلغ المتصدر من البيض سنة ١٨٩٧ م ١٣٦٧٠٠٠٠ قيمتها ١٢٣٧٣ جنيه وسنة ١٨٩٨ م ٣٤٩٨٢٠٠٠ قيمتها ٤٣١٧٧ جنيه وسنة ١٨٩٩ م ٣٩٧٦١٠٠٠ قيمتها ٤٣٢٤٤ جنيه وسنة ١٩٠٠ بلغ قيمة ما صدر من البيض للخارج ١٠٢٨٠٠ جنيه واهم ما يصدر البيض الى بريطانيا العظمى . واكثرهُ يستحضر من مديريات الوجه القبلي كقنا وجرجا واسيوط والفيوم ومن هذه المديرية الاخيرة يجلب احسن انواعهُ

فيها على شيء لانهم لم يسعوا الى الترقي فيها والاعتماد على شهامتهم مثل ما كانوا قبلاً . والاَّ فاكثر التجارة لبعض الاوربيين و بعض جماعة الارمن والسوريين الذين هم في الحقيقة بيدهم تجارة القطر . والسبب خمولنا وشهامتهم وتأخرنا وتقدمهم والاَّ فالبلاد السودانيَّة اقرب الينا منهم والحكومة واحدة فلماذا لا نذهب اليها كالسابق . مع ان احد البيوت التجاريَّة في منشستر كان لهُ وكالة في الخرطوم قبل عهد الدراويش فاعاد الوكالة الآن وهو يرسل اليها البضاعة والمنسوجات مثل ما كان يفعل منذ عشرين سنة

وفي القاهرة كثيرون من الارمن وغيرهم لا يمر بهم يوم الاَّ ويذهبون الى الاقطار السودانيَّة فينتخبون احسن البلدان و يباشرون المشروعات التجاريَّة . حتى ان احقر البلاد هناك صارت تجارتها بيدهم ولهم في مصر عملاء لاجل سرعة انجاز الطلبات بكل دقة . وناهيك بطرود البوستة التي تسافر اليهم يومياً من قلم طرود بوستة مصر . ويقرب متوسط عددها من مئتي طرد اسبوعياً كلها تقريباً باسماء تجار من الارمن واليهود والسوريين . هذا عدا ما يرسل عن طريق السكة الحديد برسم هاتيك الاصقاع

هكذا تكون حال التجارة وطريقة سيرها . ودع التجار المصريين و بالاخص المسلمين منهم يقضون ليلهم ونهارهم بغيبة بعضهم بعضاً و يرضخون للعجز والكسل وحب الراحة الى ما فوق الحد المقبول والقدر المعقول ولله عاقبة الامور

الزراعة

قال عليهِ الصلاة والسلام " التمسوا الرزق من خبايا الارض "

الزراعة علم عمليٌّ مبني على الحقائق التي عرفها ارباب الزراعة بالاختبار . والزراعة افضل صناعة . واربح بضاعة والفلاح الذي يبذل عافيتهُ لتحصيل ما يفوق كفايتهُ من الثمرات لتغذية ابناء نوعهِ وغيرهم من الحيوانات اولى بالاكرام واحق بالاحترام من غيرهِ

والزراعة تكاد تكون هي العمل الخاص لجمهور سكان مصر . وستبقى كذلك الى ما شاء الله . ولا يزدري بها الاَّ من كان جاهلاً لفوائدها . وفي مقدمة هؤُلاء جماعة منا قد انخرطوا في سلك الاستخدام الميري المتقدم ذكرهُ . وسببهُ كما قدمنا جهلهم فضلها . و بالتالي استيلاء الكسل عليهم لما اعتادوا عليهِ في صغرهم من الخلود الى الراحة . والقناعة الممزوجة بالذل بما يكتسبونهُ من استخدامهم في دواوين الحكومة ومصالحها . والاَّ لو كانوا يدركون فائدتها ولذة عيشتها لرأينا اولئك الذين استغنت الحكومة اخيرًا عن خدمتهم بعد الغاء وظائفهم عاملين في خدمتها من استئجارهم للاطيان الاميريَّة وغير الاميريَّة ولكانت اوجدت فيهم الحنكة حب الكد والعمل واستنبات ما يخرج من الارض من فولها وعدسها و بصلها وقمحها وقطنها . بدلاً مما هم متعودون عليهِ من حب المعيشة الاتكالية في وظائف الحكومة . ولكن ليس رجال الاستخدام فقط هم الذين يستنكفون العمل في الزراعة بل وابناء الفلاحين أنفسهم الذين يخرجون من المدارس سنويًا و يعدون بالمئات . فهم ايضًا لا يعودون الى زراعة والديهم وحرف آبائهم . بل يبعدون عنها كل البعد و يستنكفون من نسبتهم اليها

و يطلبون الاستخدام في المصالح الاميريَّة بالاشغال الكتابية

نعم ان ذلك لا ينقص عدد الفلاحين ولكنهم لو باشروا شؤُون اعمال والديهم واهتموا بها لتقدمت الزراعة واستحيت الارض بفضل علمهم وعرفانهم و كدهم واهتمامهم. اذ الزراعة انما ترتقي بالعقل واليد وفي اجتماع العلم والعمل يكون التقدم الحقيقي . وفلاَّحنا في حاجة كبرى لامثال هؤُلاء اذ ان جهلهُ ظاهرٌ في عيشتهِ وحرفتهِ

اما في عيشتهِ فدليلنا عليهِ اخذهُ الاموال بالرباء الباهظ وحتى انهُ يقع في احبولة اولئك الذين يعيشون خلال ديارهِ من جماعة الاروام وغيرهم [1] وناهيك بالفلاح المصري وحبهُ للاسراف وجهلهُ حاضرهُ ومستقبله وقلة اهتمامهِ لغدهِ قدر اهتمامهِ بيومهِ وهم المتوسعون في نفقاتهم في السير الى حدٍّ دونهُ السفه فضلاً عن خلق التنافس (حتى في الزواج) وهم الكثيرو الخصومات في معاملتهم بعضهم بعضاً لاقل سبب . وقضاياهم ومواقفهم في مزادات البيوع واخذهم وعطاهم مع جيرانهم واقربائهم . كلها اسباب تجر بهم الى الاسراف والاستدانة حتى توقعهم في تعاسة الفقر والعيشة الضنكة . حتى ان ديونهم اصبحت ثقيلة الحمل عليهم [2] وميلهم الى الفتور والى ما يسيء السمعة جعلهم في حاجة الى من يتولى

(١) وفي مصر وحدها من بيوت تسليف النقود نحو ٥٠ بيتاً . وهو اضعاف العدد الذي يوجد في مدينة باريس

(٢) ظهر من سجلات المحاكم المختلطة في سنة ١٨٩٨ ان الدين الموجود على الفلاحين ٧٣٢٣٣٠٠ جنيه وقد يكون عليهم ديون غير مسجلة ربما زادت على ما ذكر ضعفاً او ضعفين "وناهيك عما لحق بهم في سنة ١٩٠٠ بسبب الشراقي ومضاربات البورصة التي قدرها البعض بما يقرب من هذا المبلغ "وليس لهذا الدين سبب موجب سوى انهم غير عارفين بالاقتصاد الزراعي وتقدير الدخل والنفقات . اذ يستدين الواحد منهم مبلغاً يشتري بهِ ارضاً فلا يكون دخلها نصف ربا الدين

اعمالهم بالجد من اهل العلم حتى يجد فيهم حب الانتباه الى ما ينفع وما يضر. اذ هم يبيعون محصولهم قبل حصاده او في ابتداء الموسم برخيص الاثمان. وهم لا يعلمون ما يأتي بهِ الغد من الاسعار. والشاهد السنة الماضية وما قبلها فانهُ مع صعود الاثمان باعوا كلهم في ابتداء الموسم برخيص الثمن. فضلاً عن ولوجهم ابوابًا يجهلونها من شراء الاسهم والسندات التي كثرت اخيرًا بسبب الشركات[1] التي لا يعرفون حقيقتها ولا ما هو الغرض منها مما يدل صراحة على احتياجهم كلهم لمن يفهمهم حقيقة ذلك. والفلاح لو وفق الى من يعرّفهُ ما يجلب عليهِ الضرر والى من يعرفهُ ايراداتهُ ومصروفاتهُ لتحسنت شؤونهُ واحوالهُ. ولبعد عن السير الذي يتبعهُ

اما جهلهم في حرفتهم فدليلنا عليهِ قلة غلة الزراعة في القطر اذ هي لا تزيد على الثلاثين مليون جنيه لو قسمت على السكان لما نال كل نفس سوى اربعة جنيهات وهو مبلغ قليل بالنسبة الى ما تستغلهُ الامم الاخرى التي اراضيها كاراضينا مثل امركا وفرنسا وغيرها فانهم يستغلون اضعاف هذا المعدل ولذلك اسباب جمة منها اتقان الحرث والصرف وتعاقب الزراعة باضافة السماد لا تعاقبها بقلة الدراية حتى يؤدي لموتها. والسماد الجيد في مصر كثير. وحتى اذا لم يكن موجودًا فيمكن استحضارهُ بالمعرفة وهو لو وجد وساعدهُ خصب الارض المشهور لضاعف غلتها. افليس في القاء اجسام الحيوانات في النيل وفي الطرقات بعد موتها ضياع لأعظم سماد. وهي لو تحفر لها الحفر وتطمر فيها الى ان تتحلل وتمتزج

(١) للشركات سماسرة عددهم يزيد عن الثلاثة آلاف عدًا كلهم يسرحون في القرى والبنادر لبيع الاسهم والسندات للشركات بتقاسيط شهرية من عشرين غرشًا الى مائة غرش. "ذكر المؤيد الاغر" ان شخصًا من النزلاء الافرنج انشأ من مدة ثلاثة سنوات بيتًا ماليًا في القاهرة رأس ماله الفين جنيه فاصبح الآن وهو صاحب خمسين الف جنيه مصري وهو لو راعى الذمة في عملهِ ما ربح هذا القدر حلالًا ومناماً. اه

بالتراب لوجد فيها فوائد عظيمة تنفع الارض فضلاً عن منافعها الصحيَّة

وجهل الفلاح لما يلائم طعاماً للحيوانات ضرره كذلك عظيم . فانهم يتركون حيواناتهم اذا اصيبت بالامراض تعدي بعضها بعضاً وتموت . هذا ولا تسأل عما جدَّ فيهم من تسميم حيوانات بعضهم بعضاً واتلاف مزروعاتهم لجيرانهم ولغيرهم ايضاً

ومن الغريب ان قطرنا العزيز كان مقر تربية الخيول من قديم الزمان وكان اهل الشام وغيرهم يأتون اليهِ لابتياع الخيل منهُ فصار اهل مصر يمضون الى الشام وغيرها لابتياع الخيل منها [1] والخيل لازمة لكل البلدان الزراعيَّة للحمل وغيرهِ ونفقتها فيها قليلة . كل ذلك دليل جهلهم في حرفتهم والاَّ فأرني دعائم الزراعة من بساتين لامتحان الزرع واتقان لآلات الزراعة « ولا يزال المحراث المستعمل في مصر هو هو الذي كان مستعملاً من الفي سنة » او أرني من مستلزمات الزراعة شيئاً من تربية النحل في الجنائن وهي الكثيرة وهو لا يحتاج لكبير مشقة

ذلك فضلاً عن حاجتهم لديوان زراعي يهتم بكل ما يتعلق باراضي القطر ليغني الحكومة والاهالي من انفاق النفقات على التجارب مثل ابادة الحشرات التي تسطوا على المزروعات سنوياً ويهتم بادخال المزروعات الجديدة التي تُنمو في القطر والشروع في انشاء الاحراش وغيرها التي كان في القطر منها شيءٌ كثيرٌ والتي لا غنى لقطر زراعي كقطرنا عنها . ويراعي ما يجلبهُ المزارعون من الخارج مما يكونوا في غنى عنهُ لو زاد الاهتمام بالزراعة فيداويهِ . اذ المتأمل فيما يرد على القطر من الحاصلات الزراعيَّة تأخذهُ الدهشة وخصوصاً لو علم ما يجلب بكثرة من الغنم ونحوها من

(١) كثيراً ما احتاجت نظارة الحربية ومصلحة البوليس للخيل وارسلا الوفود لشرائها من سوريا وبالاخص في حرب السودان الاخير من سنة ١٨٩٦ الى سنة ١٨٩٩

المواشي ومن اللحم المقدد والمدخن ومن السمك المقدد والمملح ومن الجبن والزبدة [1] ومن القمح ومن الذرة والشعير والارز والسمسم والبطاطس والنيلة

والقطر في حاجة لكثرة المعارض الزراعيَّة التي هي من اقوى دعائم الزراعة والتي من الواجب ان يكون كل شهر معرض في احدى المديريات . ولا يخفى ما في المعارض الزراعيَّة من المنافسة والمسابقة والاختبار والاعتبار

نعم ان الحكومة اهتمت بما ذكر وايضاً بعض كبار المزارعين واقامت معارض لهذا الغرض من بضع سنوات مضت . ولكنَّ المتأمل يرى ان ذلك قليل النفع اذا لم يعمم في كل المديريات مديريَّة بعد اخرى على عدد اشهر السنة

وهذا معرض سنة ١٩٠٠ اعظم شاهد على قلة الفائدة فان الزائرين (لا العارضين) له لم يتجاوز عددهم ٨٠٦٤ زائراً وانت لو استقصيت الحقيقة لوجدت اكثر من نصف زائريهِ من الاجانب واكثر من الربع من تلامذة المدارس

لعمري ان ما بقي لعدد قليل على قطر زراعي ينبغي التقدم الحقيقي ويود تحسين زراعتهِ وكل اهلهِ من اربابها وحياتهم كلها منها . هذا حاضر الزراعة المصريَّة وهي الموروثة من اجيال مضت وقبل ان يعرفها من سبقنا فيها بأجيال

افبعد ذلك من دليل على العجز في مباشرة شؤونها . ام تقول معي حبذا الزراعة لو اقترنت بالعقل واليد مع النشاط والجد لنصبح يوماً ونحن غير مفتقرين لغيرنا فنعيش بسلام آمنين

(١) جد من امد ليس ببعيد ثلاثة معامل للزبدة ولكن كلها لجماعة الافرنج

الصناعة

قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنهُ (قيمة كل امرىءٍ ما يحسنهُ) وقال ايضاً (الناس ابناء ما يحسنون)

لولا الصناعة لدام الانسان في فطرتهِ الاولى متأخراً خاملاً . والصناعة من الامور الضروريَّة للهيئة الاجتماعيَّة وعليها تتوقف حياة كل أُمة وهي السبب في تعليم الشعوب حب الاستقلال بالافكار والاعمال . وحب الاعتماد على النفس وكانت مقاليد الصناعة في مصر في عهد الولاة الاولين تناط بالحكومة فكانت هي المتولية امورها وشؤونها . حتى انهُ ليصعب على المرء معرفة حالة الحكومة المصريَّة الماضية . وما اذا كانت حكومة اداريَّة او زراعيَّة او تجاريَّة او صناعيَّة لما يُعلم من انها هي التي كانت تأخذ على عاتقها انشاء المعامل وادارتها ومد الخطوط الحديديَّة وتسيير السفن البخاريَّة التجاريَّة وانشاء المطابع وغير ذلك من الاعمال والمشروعات التي لا تقوم عادة بها الحكومات المتمدنة . بل تعد الامة نفسها للاقدام عليهِ . نقول هذا عن الحكومة الماضية وهو قول حقٍّ . لأنهُ كان السبب في اقعاد الامة عن السعي في ترقية شؤون الصناعة بنفسها لانماء ثروتها . وفي ايراد الصناعة موارد التقصير المعيبة كحال الصناعة الوطنيَّة التي نراها في نكوص دائم وتأخر مستمر يوماً فيوماً . والتي اذا بقيت حالها سائرة القهقرى آلت الى العفاء والمحو . على ان غاية ما يمكن ان يقال في الصناعة الوطنيَّة انها منحصرة في صنع الحصر والفخار وحياكة بعض المنسوجات القطنية وغيرها من مثل الحدادة والبرادة وعمل الجزم التي يتولى عملها بعض الافراد في معامل وورش حقيرة وهي غير آخذة في التقدم غير ان حالة الصناعة عند النزلاء الاوربيين بيننا في تقدم ونجاح . فهم اصحاب معامل

السكر وتكريره واصحاب وابورات حلج القطن ومعاصر الزيوت واستخراج الصودا والنطرون وغير ذلك . ومع هذا فالناظر الى واردات القطر يجد الصناعة فيهِ بوجه الاجمال متأخرة تأخرًا عظيمًا والمصري يعذر من وجه ويلام من وجه آخر على تواكلهِ وتخاذلهِ وبيان هذا الاجمال أنهُ لا يؤمل صنع المصنوعات التي يؤتى بكل موادها الاصلية من البلدان الخارجيَّة في قطرنا . ولكن يؤمل ان المصنوعات التي موادها الاصليَّة موجودة في القطر يجب ان تصنع على الاقل فيهِ . فالسكر المكرر يرد منهُ من الخارج ما تقدر قيمتهُ بثلاثين الف جنيه مع ان معاملهُ في القطر على ما مرَّ بنا وكان الواجب ان يفي بحاجاتهِ او يزيد عليها . والورق وهو سهل العمل وموادهِ عندنا فكان الواجب ان يعمل في قطرنا وحاجتنا اليهِ شديدة لأنهُ من لوازم العمران وبعض الامم تقيس عمرانها على مقدار ما تستهلك منهُ فمن العار علينا اذًا هذا التقصير في عملهِ . والقطر السوري الذي هو متأخر عنا بمراحل يصنعهُ ولا يشكو اهلهُ قلتهُ كما نشكو نحن وجرائدنا [1] ومثل ذلك يقال عن الحبر وحبر المطابع التي اصبحت كثيرة الآن بمصر . ومن الغريب في الصناعة المصريَّة ان اهلها من المصريين لم يتقدموا فيها ولم يحافظوا على ما كان معروفًا لديهم . فان المتأمل يراهم قد نسوا او تناسوا ما كان آباؤهم واجدادهم يصنعونهُ قبل مما يعجز صناع اوربا عن عملهِ مثل النجارة العربيَّة « الانتيكة المشربيَّة » التي ضيعوها وان صنعوها الآن مسخوها وهي الآن بيد جماعة من الافرنج وليس ببعيد عليهم ان يشتهروا بها في زمن

(١) علمنا انهُ قد تألفت شركة صغيرة في الاسكندرية لعمل الورق وبلغنا انها تصنعهُ على انواعهِ والوانهِ ما عدا ورق الكتابة وورق الجرائد. وهي تصنع على ما يقال في اليوم الواحد من ٥٠ الى ٦٠ قنطارًا بماكينة صغيرة واحدة فقط لان اسهمها كلها بمبلغ ٨٠٠٠ جنيه ولربما كان الداعي في عدم توسيع نطاقها قلة راس مالها

قريب[1] وقد غفلوا عن استقطار ماء الزهور الكثيرة في مصر مثل ماء النعناع والورد والفليا . وفائدة استقطارها معلومة لا تخفى على احد . وان وجد من يستقطرها فافراد من النساء يستخرجون منها القليل ويمزجونهُ بالماء الكثير ويبيعونهُ داخل قنانى في القهاوي وهنَّ متهتكات وغني عن البيان ان البلاد في حاجة الى ذلك ولا سيما حينما تتغير ماء النيل في شهري مايو ويونيو ويوليو من كل سنة . والمتأمل في تقرير مصلحة الجمارك يرى كثرة ما يرد على القطر سنوياً من ذلك من البلاد السورية وغيرها . وهذه اشياء سهلة العمل جداً وممكن تعلمها بعد المشاهدة مرة واحدة . كما هو ممكن صنع انواع الطيب الاخرى التي يرد منها على القطر من الخارج ما تقدر قيمتهُ باحدى عشر الف جنيه . وممكن ايضاً صنع الاكياس والحبال. ليستغني القطر عن جلبها من الخارج . وممكن عمل قماش القلوع الذي يرد علينا منها ما تقدر قيمتهُ ١٥٠٠ جنيه وجميع مواد هذه الاحتياجات موجود عندنا ويمكننا صنعها في بلادنا فنربح نحن ما يربحهُ التاجر الاوربي الذي نستوردها على يدهِ وينتفع عملتنا الفقراء باجور صنع هذه الحاجيات عوضاً عن نفع العامل الاجنبي

ويضيق بنا المقام لو عددنا الاصناف الاخرى التي يمكننا صنعها مثل الجير والاجر فان قيمة الوارد منهما لا تقل عن الخمسة والعشرين الف جنيه

والخلاصة اننا مقصرون في الصناعة حتى في صناعة عمل الخبز فان باعة الخبز عموماً يملأونهُ ماءً حتى يثقل وزنهُ على غير زيادة في موادهِ الغذائيَّة[2] وما يقال عن الخبز يقال ايضاً عن الجبن فان قيمة الوارد منهُ سنة ١٨٩٨ تقدر بمبلغ ثلاثة

(١) اذ المكان الجميل الذي وضعت فيهِ مخلفات سيد الكون (عليهِ الصلاة والسلام) في المشهد الحسيني من صنع الاجنبي وهو لعمري اقدس الاماكن في القطر المصري

(٢) لهذا السبب انشأ الاجانب في الاسكندرية (مخابز صحية) بواسطة شركة بلجيكية

عشر الف وست مئة جنيه . ونحن مقصرون حتى في تنظيف ما في بيوتنا من الاواني الغالية الثمن حتى اننا نحتاج عند تنظيفها الى الاجانب وربما احوجتنا الحالة ان نرسلها الى الخارج . . وان اردنا لحم شيءٍ بآخر ولو كان من الزنك لا ندري كيف يصنع ذلك وهذا غاية في الكسل ونهاية الاهمال وما أظن أُمة من الامم قد ادى بها الانحطاط الى ما نحن فيهِ وان لم نتدارك شؤُون الحياة بهمة قويَّة وعزيمة ماضية صرنا الى ما لا تحمد عقباهُ من سوء الحال وخيبة الآمال والعياذ بالله

نسأل الله ان يحيي فينا حب الميل الى الصناعة حتى نحيا حياة اقتصاديَّة جديدة ونجد فينا حب الابتكار في الصناعة فيكتسب الصانع كسبهُ بطرق محللة فان الصناعة ينبوع ثروة لا ينضب وسر من اسرار الاستقلال الصحيح

المطابع والطباعة

ونفعها الماضي وضررها الحاضر

اهتمَّ المصريون بالمطابع والطباعة بعد ان عرفوها من حكومتهم عند اهتمامها بانشاء مطبعة بولاق سنة ١٢٣٨ هجريَّة فانشأ الافراد منهم مطابعهم الخاصة ليشتغلوا فيها بطبع الكتب والرسائل فطبعوا ونشروا الشيء الكثير وكان جل اهتمامهم في اول امرهم بطبع كتب العلم من الحديث والتفسير وكتب التاريخ وغير ذلك مما وفقوا لطبعهِ من باقي العلوم الاخرى التي تكسب النفوس بعض الحياة وتحيي فيها بعض ما اندرس من العلم وتبين بعض ما انطمس من الحقيقة على الفهم . ظلوا على ذلك في مبدإِ امرهم حتى استبشر العقلاء بالمستقبل الحسن لتقدم الامة المصريَّة . غير ان الحال لم تدم طويلاً بل تبدلت بطبع الضار والمفسد من الكتب حتى اصبح ديدن اصحاب المطابع المصريَّة (وخصوصاً الاسلاميَّة منها) الميل الى طبع كتب السخافة

والاوهام . ولعلمهم ان العامة اميل الى ذلك من العلم والحقائق اكثروا من طبع القصص والحكايات الغرامية والفكاهية والاشعار الغير المستظرفة وكتب النوادر والمجون المفسدة للاخلاق والطباع والخيال ككتب الجفر والزايرجة والملاحم المملوءة بقول الزور والبهتان المنسوبة كذباً الى مشاهير الاسلام من اهل البيت وغيرهم (١) من ذوي الاصل الكريم والفرع الطيب غير ان اصحاب المطابع السورية وخصوصاً في هذه الايام لم يلتفتوا الى مثل هذه الخزعبلات بل ساروا سيراً حثيثاً يدل على اهتمامهم بمطابعهم وطبعهم الشيء النافع . فانك لترى بين ايديهم كتب الجد الحاثة للامة على الظهور في عالم الحقيقة وما السبب في ذلك الاَّ اعتناؤهم بطبع كل شيء نافع مفيد . خذ لذلك مثلاً كتب الافاضل الذين ألفوها او ترجموها في الحقائق تراها مطبوعة في تلك المطابع وما بقي من كتب الجهل الدالة على ضعف العزائم فمطبوع في مطابع المصريين و بالاخص المسلمين . مما جعل القراء المدققين في دهشة من ذلك واستغراب . حتى حق للعاقل ان يزدري بالمطابع المصرية ولا يطبع فيها ما دام يمكنهُ التمييز بين كتاب مطبوع في مطبعة احد المصريين وكتاب مطبوع في مطبعة احد السوريين . اذ يتبين لهُ عظم الفرق بين ما يطبعهُ هذا وما يطبعهُ ذاك . ففي الاول يرى من سقامة الطبع ورداءة الورق ما ينفر منهُ ذوقهُ .

(١) وحبذا لو كان علماؤنا ينبهون على هذه الكتب الضارة ليجتنبها الناس ولا يلتفتوا اليها وما اضر بالمسلمين شيء كاضرار هذه الكتب التي أقعدتهم عن السعي والعمل وغلت أيديهم عن الجد والاشتغال بما ينفعهم ومن الاسف ان بعض من ينتسب الى الازهر قد طبع كتاباً في العام الماضي من اشنع الكتب المضرة واعلن عن بيعهِ في الازهر ولولا ان بنتبه لذلك ذوو الحكمة و يضربوا على يدهِ و يؤدبوهُ لكان الامر من أفظع الامور وانا نستلفت انظار العلماء الى تلافي هذا الخلل ووضع قاعدة لدرء هذه المفاسد الناشئة عن هذه الكتب المنتشرة وهذا واجب يلقى على عاتقهم لا يمكنهم التخلص منهُ أمام الله والناس

وفي الثاني دقة الوضع ونظافة الطبع . وما ذلك الاَّ من نتيجة اهمال الاولين لعملهم واعتناء الآخرين بهِ وعدم جلب الاحرف الصحيحة بدلاً من الاحرف القديمة التي برت ضلوعها طرق الآلة الطباعيَّة وطول الاستعمال وهذا هو السبب الثاني في تأخر مطابع المصريين . كل ذلك بقطع النظر عما يحصل في مطابع المصريين من كثرة الغلطات وسقوط نقطة او كلمة او تداخل احرف اللفظة في احرف جارتها . ولذا يندر ان يكون كتاب مطبوعاً في مطابعهم بدون فهرست في آخرهِ مبيناً فيهِ الخطاء من الصواب او الاعتذار للقارىء عما عساهُ ان يكون فيهِ من السهو

هذا قولنا عن المطابع المصريَّة وهو القول الحق الاَّ اننا نؤمل خيراً في المستقبل فقد انتبه منا بعض الشبان المهذبين فانشأوا مطابع لطبع الكتب طبعاً نظيفاً يسر الخاطر كمطبعة الشاب المهذب محمد علي كامل افندي وغيرهِ

ومما يسرنا ذكرهُ ايضاً انهُ تألفت من مدة جمعيَّة لطبع الكتب العربيَّة (١) المفيدة وقد طبعت للآن سبعة كتب جديرة بالمطالعة لما فيها من بعض الفوائد . غير اننا لا نزال مقصرين ولا يزال باقياً لدينا كتب كثيرة ذات فائدة علميَّة وتاريخيَّة نحن محرومون منها مع انها في لغتنا ونحن الاحق بمطالعتها وقراءتها لنقف على ما كتبهُ آباؤنا الاولون . ومن هذه الكتب عدد عظيم في دار الكتبخانة الخديويَّة وهي احق بالطبع من كتب القصص والحكايات الغراميَّة وكتب النوادر والمجون والخيال التي اعتنينا بطبعها ونشرها . وهذه الكتب يعلم اسماؤها من مطالعة فهرست

(١) بعد ان كتبنا عن هذه الجمعية علمنا انهُ تشكلت جمعية باسم جمعية احياء العلوم العربية تحت رئاسة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وقد طبعت كتاب المخصص في اللغة لابن سيده وهو من الكتب النادرة المثال وقد اعلنت الجمعية عنهُ وستوالي طبع الكتب النافعة وهذه الجمعية اعضاؤها من خيرة رجال القطر ونبهائهِ وفقهم الله واكثر من امثالهم آمين

الكتبخانة المذكورة وإلاَّ افليس من العار على من يعتني بطبع ما تقدم ألاَّ يعتني بطبعها[1] . اليس من العار علينا ايضاً ان يطبعها الافرنج بلغاتهم بعد ترجمتها ثم يدرسونها في منتدياتهم العلميَّة وهم بعيدون عن اللغة العربيَّة ونحن اقرب اليها منهم . حقًا ان من يعرف كثرة طبع الافرنج لها ياخذهُ العجب[2] فعسى ان ينتبهَ اصحاب المطابع منا ويعتنوا بمطابعهم فينشروا تلك الكتب ويتنافسوا في طبعها بدلاً من كتب السخافة والهذيان التي افسدت علينا اخلاقنا وغيَّرت محاسننا حتى اصبحنا نخاف ان يكثر اولادنا من قراءتها واقاربنا وجيراننا ايضاً فتؤثر في عقولهم واخلاقهم التأثير السيء الذي ينغص الهيئة الاجتماعيَّة والعائليَّة . وحبذا لو ساعد الاغنياء واهل العلم منا جمعيَّة طبع الكتب العربيَّة وجمعيَّة احياء العلوم العربيَّة ايضاً هذا بمالهِ وذاك بعلمهِ لتحيا اللغة ويكثر الانتفاع حقيقة بالطبع والنشر . حتى لا يضحك علينا بعدنا اولادنا ومؤرخونا ويقولوا عنا انا كنا نهوى الداء وهو يتمادى مع ان الشفاء بيننا يتهادى ولكن لا نمد لهُ يدًا . وكيف لا يضحكون واليك جدولاً مبيناً فيهِ الكتب التي أُلفت وطبعت في القطر خلال السنوات الخمس الاخيرة

عدد	
٧٥	روايات وقصص

(١) ومن العجيب الغريب المضحك المبكي ان باعة الكتب وطابعيها عندنا لاهمَّ لهم ولا لذة الاَّ بمكاسة بعضهم بعضاً والسعي في اضرار انفسهم ولا يتنافسون الاَّ على مثل كتاب الف ليلة وكتاب سيف اليزن ورجوع الشيخ ولذا تراهم يكررون طبع الكتاب مراراً والحال انهُ لم ينفد ولكن سعياً في ابذاء الذي طبعهُ اولاً وهذا شأنهم ومن العجيب ان يطبع كتاب الف ليلة عشرين مرة وكتاب المدخل لابن الحاج مرة واحدة وهذا يدل على انحطاط كبير فينا وخذلان ليس لهُ مثيل والعياذ بالله

(٢) انظر ما كتبهُ فاضل في مجلة المقتطف الجزء ٤ سنة ٢٥

عدد	
١٩	كتب تاريخيَّة واكثرها من اسلوب واحد
١٥	" ادبيَّة
٠٩	" مجون ونفاق مثل كتاب المسامير وسهام التدمير وانقاذ الاخوان
٠٤	" سياسيَّة
٠٣	" حسابيَّة
٠٢	" في التربية
٠٢	" في الامثال واصل الكلمات العاميَّة
٠٣	" في العلوم الفنيَّة
٠٩	" ورسائل في المواضيع الدينيَّة مثل رسائل الردود على القسس والقسس على المشايخ
٠٤	" في اللغة القبطيَّة والهير وجليف
٢	" " الزراعة
٦	" " الرثاء
٤	" دواوين
٢	" في الانشاء
٣	" " التراجم
٢	" " الحقوق
٢	" " الطب
٢	" " علم الآثار

obeikandl.com

الكتب والمؤلفون بمصر

ان كان عدد المدارس وعدد المتعلمين والنظام المالي والاقتصادي يعتبر من الادلة الصحيحة على درجة مدنيَّة البلاد فنوع المؤلفات التي تنشر فيها من حين الى حين وعددها ايضاً من احسن الشواهد على درجة ماهيَّة هذه المدنية . اذ هي خلاصة افكار وخواطر نخبة الامة ومرآة ذوق المتنورين واميال الفئة المتعلمة بأسرها . ومعلوم ان المصلحة الشخصيَّة هي المحرك لجميع الاعمال في هذه الحياة ويستحيل ان يهتم شخص في الوجود لامر ما لم يكن مسوقاً اليهِ بحب المصلحة الذاتيَّة . فتارة يكون اندفاعهُ طلباً في الافتخار " والانسان طبيعة يفتخر بجمالهِ وعلمهِ وادبهِ وثروتهِ وتواضعهِ وتنسكهِ حتى عند ما يكون ظاهر عملهِ تضحية حب الذات " وتارة سعياً وراء المال او الانعام وغير ذلك من العوامل الادبيَّة الخفيَّة . اذاً لا بد ان يكون للمؤلف مثل غيرهِ من غاية او محرك في عملهِ . ويمكن تقسيم المؤلفين من هذا القبيل الى (اولاً) مؤلفين غايتهم نشر افكارهم العلميَّة خدمة للعلم او الوطنيَّة او الدين او الآداب . ولشهرة انفسهم مع الامل بالربح المادي انما دون ان يكون هذا الاخير المطمح الرئيسي . وهذه هي اقل فئة بين العالمين

(ثانياً) مؤلفين غايتهم في جانب الشهرة الربح المادي وربما اختلف البعض عن الآخر في انهُ يرمي اولاً الى الشهرة او الى الربح انما بوجه الاجمال يصح القول بأن الغاية الرئيسيَّة من السالف بوجه عام هي الربح والشهرة

ونحن مع كوننا من فئة المستبشرين القائلين بسير البلاد الى الامام نوعاً لا يمكننا ان نقول باعتقاد صحيح ان في مصر عدداً محسوساً من الفئة الاولى وربما لا يخلو الحال من افاضل هم حقيقة منها وما منعهم عن الظهور الاَّ ترجيحهم بأنهُ لا

يوجد في القوم من يقدر كتابتهم حق قدرها و يهتم بقراءتها فلا يرون من العقل الاشتغال في اعمال لا يتوقع فائدة منها . ولكن هذا لا يوجب الانشراح على اية حال سواء كان الرأي صحيحاً ام لا فالنتيجة ان البلاد خالية من اعمال اهل العلم الصحيح "ماعدا النزر القليل جدًّا وسيأتي الكلام عن ذلك" وتدل ايضاً ان هذه النتيجة القليلة ليست مثل قريناتها في بلاد المتمدنين اقداماً ومنفعة للبلاد ولا يصح التعويل عليها بصورة توجب الانشراح . اما القسم الثاني من المؤلفين فلو انهُ يوجد بعض التماثل بين اعمالهم واعمال بعض المؤلفين في غير هذا القطر ولكن بوجه الاجمال لا يمكن مقارنتهم بهم لا من حيث عدد المؤلفات ونسبتها ولا بالاخص من حيث نوعها وقيمتها

في البلاد المتمدنة يوجد مؤلفون علميون ومؤلفون سياسيون ومؤلفون اقتصاديون ومؤلفون دينيون ومؤلفون ادبيون ومؤلفون فكاهيون الخ الخ . يختلفون طبعاً من حيث متانة البحث وآداب الكتابة ولكن في كل درجة منهم ما يكفي لحاجات جميع الطبقات . ويمكن ان يقال ان في بلادهم كل شيء في تقدم حتى الذل . نعم يتمنى المرء العاقل ان تكون جميع الخواطر منصرفة الى الجد ولكن هذا يستحيل ما دام الانسان انساناً والدنيا دنيا ولكن وجود الذل وغيرهُ يكاد لا يؤثر على تقدم البلاد نظرًا لاهتمام الفئة الكبرى بما يرقي البلاد علماً وادباً وثروة

اما في مصر فالمؤلفات المفيدة التي من هذا القبيل تكاد لا تذكر وعيوب العدد الاوفر منها اكثر من فضائلها . فجرائدنا وكتبنا لا تخلو من محل للانتقاد الصحيح اكثر بكثير من نظيراتها عند غيرنا . واغلبها خلو من المباحث العلمية او الفلسفية او الادبية او التجارية وقاصرة على التهكم على بعض افراد لغايات دينية محضة او على نشر اراجيف وخرافات وافكار ومباحث تضعف الذوق العلمي

وملكة العقل الصحيح عند اهل البلاد فهي اذًا تساعد على انحطاط العقل اكثر من مساعدتها على ترقيتهِ وتدل دلالة واضحة على انحطاط نفس المؤلفين وهم بحسب الارجح الفئة التي امتازت عن المجموع علمًا وادبًا وأمكنها ادارة الاقلام

ونحن لا نقول هذا عفوًا بدون تبصر فان مصر مع انها تعتبر عاصمة البلاد العربيَّة حضارة ومدنية هي بنسبة مركزها الحالي احوج الى الكتب العصريَّة المفيدة من غيرها فالمؤلفات المذخورة في الكتبخانات العمومية والخصوصية تكاد تكون قاصرة على بقايا العصور الخالية فالادبية والفلسفيَّة منها قد لا تنطبق على آداب وفلسفة الوقت الحاضر الانطباق اللازم . والتاريخيَّة منها اكثرها خطل وحكايات ليس لها في الغالب أساس علمي " أُنظر بعض المؤلفات التاريخيَّة من التي طبعت اخيرًا وذكرنا عددها في الفصل السالف "واللغوي منها كلهُ تكرار ومزج غير مفيد " انظر كتابًا من الكتابين المؤلفين في الانشاء اللذين ذكرناهما في الفصل السابق "

والعلمية منها لا علم صحيح في اكثرها لان اغلب قضاياها قد ثبت عدم صحتها . ولو انهُ لا يوجد الاَّ نفر قليل مهتم فعلاً بمطالعتها ولكن مجموع خرافاتها واضاليلها ما زالت منتشرة بين الجمهور . وهذا هو اكبر عامل مساعد على بقاء القوم في حالة الانحطاط العلمي خصوصًا وانهُ لم يفطن احد من ذوي النشاط العلمي الى دحضها بالاساليب المألوفة في غير هذه البلاد

نعم يظهر بيننا من وقت الى آخر مؤلفات بعضها مفيد نوعًا ولكن أغلبها كما قلنا عبارة عن ترجمة بعض روايات افرنكية قد لا تنطبق على المطلوب في هذه البلاد خصوصًا وان الترجمة تفقدها في الغالب قوة اللهجة ولذة العبارة وربما كان لمترجميها بعض الفوز اذ هم لاغاية لهم منها غير مجرد الفائدة المادية حيث ينظرون الى هذه البلاد كسوق رابحة تروج فيها بضائعهم والغاية الادبية من الروايات بوجه

العموم تمثيل عوائد البلاد ونقائص احكامها ونظاماتها واستبداد حكامها استنهاضاً لهمة الامة ولتقويم المعوج . فالتي يكتب منها لبلاد معلومة قد لا يكون لهُ كل المعنى المطلوب في هذه البلاد . فما عدا العدد القليل جدًّا لم يظهر عندنا شيءٌ مفيد من هذا القبيل . وكذا قل عن التاريخ . اما عن الآداب والفلسفة فلا محل لها في الكلام لخلو البلاد تقريباً من مباحث صحيحة فيها . والعلة الحقيقية في ذلك ما هو سائد في اذهان العوام من ان كل بحث عقلي يناقض الاعتقاد الديني . وان هذا مقدس لا يصح التعرض لهُ ولا غرابة ان استمر مثل هذا الاحساس المضر في القوم ان كانت جميع المدارس العائلية والابتدائية والعالية والاجتماعية خالية كل الخلو من كل بحث في علل الاشياء ولا غرابة اذا انقضى القرن التاسع عشر ودخل القرن العشرون واكبر مدرسة عربية " الجامع الازهر وما يماثلهُ " ليس فيهِ شيءٌ من المباحث الفلسفية العصريَّة التي بدونها يستحيل تقريباً تهذيب النفوس التهذيب الحقيقي الذي تقوم عليهِ المدنية الصحيحة . فان كان لمثل هذه المباحث او لمثل هذه المبادي نصيب واعطي لتربية النفوس والاخلاق محلاًّ ولو جزئيًّا في برو جرامات المدارس لامكن التمييز بين منطقة نفوذ الدين ومنطقة نفوذ العلم ولظهرت بيننا كتب ومؤلفات تنهض بالامة نهضة محسوسة يمكنها معها مجاراة الامم المزاحمة لنا هذه المزاحمة القويَّة

اما المؤلفات العلمية فقد انقرض زمنها لاسباب شتى اخصها عدم وجود فائدة بالمرة من الاشتغال بها . اولاً لعدم استعمال المدارس الكتب العربية في تدريس العلوم . ثانياً لعدم اهتمام الناس بالعلوم حبًّا فيها لاعتقادهم عدم فائدتها في حالة البلاد الراهنة . ثالثاً لعدم وجود فئة محسوسة من اهل العلم الصحيح الذين يدأبون من انفسهم على نشرهِ بصرف النظر عن جميع الموانع

اما المجلات والجرائد فان استثني منها النزر القليل جدًّا الذي لا يعود فضلهُ لاهل البلاد الاصليين فالباقي انما هو عبارة عن جرائد قليلة الاحتفاء بعزة النفس والرفعة الصحيحة غير واسعة الاطلاع والتمكن من المسائل السياسيَّة والاجتماعيَّة وجميعها ترمي الى غايتين أساسيتين . الاولى خدمة مصلحة اصحابها . والثانية خدمة الفئة المنتسبة لها دينًا . فهي اذًا من اقوى العوامل على نشر التعصب واضعاف البلاد واكثر ما يدرج فيها يقصد منهُ التشفي الذاتي وتوليد الضغائن وبحمد الله كلها مجمعة على البعد عن واجب الكتابة والمباحث المفيدة الاَّ ما كان في بعض الاحيان من المسائل التي يجرهم اليها ظهور الحقائق بحيث تتغلب على مآربهم واميالهم من حيث لا يشعرون وهذا قليل من سوء حظ البلاد

كتب مفيدة

وان كان كتاب " سر تقدم الانكليز السكسونيين " وتحرير المرأة " " والمرأة الجديدة " مقدمة لحياة جديدة لهذه البلاد فهي كافية لمحو عارها واحياء آمال محبيها . اني لست اول معجب بكل حرف من هذه الكتب النفيسة ولست ممن خصوا بالنصيب الاوفر من العقل لتقدير ما ورد فيها من المبادىء السامية التي تستحق بلا مراء ان تزين بها العقول والمكاتب والمنازل ولست لسوء حظي من الذين يستطيعون اظهار فوائدها ولكن شغفي بها يدفعني دفعًا الى افراد باب لكل منها

" كتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين "

" لسعادة العالم الفاضل احمد فتحي زغلول بك "

قصد واضع هذا الكتاب احسن علم اجتماعي جمع فيهِ خلاصة ابحاثهِ وابحاث قرنائهِ في نظام فرنسا الاقتصادي السياسي ومقارنتهِ مع نظام انكلترا التي منها يتضح

علة تقدم الاخيرين وتأخر الاولين . فهو اذاً قاصر على مباحث اجتماعية محضة لا دخل للدين فيها . ولوجود تشابه محسوس بين الجمعية المصرية والجمعية الفرنسوية من بعض الوجوه لاحظ سعادة العالم المدقق احمد فتحي زغلول بك ما ينجم لامتهِ من الفائدة من نشرهِ وشرحهِ وتذييلهِ بالملحوظات الخاصة بهذا القطر

فالكتاب جليل القدر . (اولاً) لانهُ اول مؤلف في بابهِ وقف على علل انحطاط الامة الافرنسية الحقيقية من عالم مدقق تقريباً فريد من حيث كيفية ابحاثهِ وحرية نظرياتهِ . (ثانياً) لانهُ بحث في مسائل مالية جوهرية يتوقف عليها حياة امة او زوالها . (ثالثاً) لانهُ يخص كل فرد من افراد الامة بدون ادنى ارتباط للاعتقاد الديني

وهو ذو قيمة خصوصية بالنسبة لهذه البلاد . اولاً لانهُ اول مؤلف ظهر في بابهِ فيها . ثانياً لان البلاد في حاجة واضطرار اليهِ . ثالثاً لان ناقلهُ الى العربية عالم فاضل لا شبهة في اقتدارهِ على اظهار مزاياهُ واكسابهِ قوة التأثير التي لكتابهِ الاصلي في بلادهِ خصوصاً وانهُ قد وضعهُ بصورة تفي بحاجات البلاد الخصوصية فرغماً عن هذه المزايا لم يلق كل الاهتمام اللائق لهُ . وعذر القوم في ذلك واضح فانحطاطنا الادبي مشاهد بالعيان . ونحن لا نلوم الفئة الكبرى لان جهلها المعلوم يلتمس لها العذر ولكن الفئة القليلة التي كان ينتظر ان تنظر لهُ بعين الرضا على الاقل وتهتم بالبحث فيهِ بقصد الامعان . كانت مع الاسف من اشد العاملين على الحط من قيمتهِ ومسخ معانيهِ ولعلهم ان اكبر حجة تفلح في هذه البلاد هي التحكك في الدين قالوا ان مباحثهُ تناقض الدين والله اعلم بأوجه التناقض . والكتاب بريء منها . ولكن بما ان نواميس الطبيعة تقضي حتماً بضرورة ظهور الحقيقة ولو بعد حين فلا بد من يوم تفهم الناس فيهِ معنى الكتاب وتقدر قدر واضعيه وانهم بلا شك من نوابغ الدهر ورحم الله القائل

ما ضرَّ شمس الضحى في الأفق ساطعة ان لا يرى ضوءها من ليس ذا بصرِ

كتاب تحرير المرأة والمرأة الجديدة

" لسعادة العالم القانوني قاسم بك امين "

ظلت الامم ازمانًا تجهل تأثير المرأة في العمران . وان لها حقوقًا وشأنًا فيهِ . لا تقل عن حقوق الرجل وشأنهِ ان لم تكن اكثر . ولكن ما لبث هذا الجهل ان زال او تقلص على الاقل في الامم المتمدنة بنسبة ارتقائها في سلم العلم الصحيح وادركت ان اساس العلم والتربية هو المدرسة المنزليَّة واساس هذه المدرسة هي المرأة وانهُ بقدر ارتقاء هذه ترتقي هذه المدارس وبقدر ارتقائها ترتقي افراد الامة ايضًا . ادركت هذه الشعوب بان المرأة خلقت مساوية للرجل في الحقوق واكثر منهُ رقة في العواطف وسرعة في الخواطر وشغفًا بالمحافظة على الآداب وان ما انزلها الى درجة الاستعباد خلافًا لما تأمر بهِ الاديان جميعها الاَّ تطرف الرجل وخروجهُ عن حد الاعتدال واستبدادهِ وان هذا الحط مضرّ فعلاً بجسم الهيئة الاجتماعيَّة ومفسد لقوامها وارتقائها اذ يترتب عليهِ ابعاد فئة كبرى من العمل المفيد بل ومن اكبر عمل يتوقف عليهِ التمدن الصحيح . فلما ادرك الرجال العارفون ذلك وثبت لهم ان سعادتهم لا تتم الاَّ برفع اجحافهم عن النساء واعطائهنَّ مركزهنَّ الطبيعي الذي اقرتهنَّ عليهِ الشرائع هان عليهم التجاوز شيئًا فشيئًا عن الاستبداد وساعدهم على ذلك ما شعروا بهِ من الارتقاء وتوفر اسباب الهناء والعمران . هذه حقائق راهنة يكفي معرفتها للاقتناع بصحتها وهذه شعوب اوربا كلها دلائل ساطعة عليها . ولكن لما قام حضرة العالم الباحث سعادة قاسم بك امين يحدث اهل بلادهِ بها قوبل بالسخط والازدراء ويا ليت هذا من فئة الاميين وسطيحي المعارف فقط الذين أَلفوا استعباد المرأة واعتبارها احط منهم قدرًا واتخاذها متاعًا من امتعة البيت والدين يأبى ذلك

بل من الفئة الممتازة " فئة العلماء " والظاهرين بمظهر المرشدين والمعلمين وحاجوا المؤلف بالدين وجعلوه عكازهم الوحيد . نعم انهم أفلحوا — ولكنهُ فلاحٌ وقتيٌ — في تنفير القلوب من هذه المبادئ السامية ومنعها من الوصول بالتربية الحقة الى سعادتها ولا بد يوماً ما من انتصار الحق وتغلبهِ لاشتغال القوم بالعرض دون الجوهر فانهم تمسكوا بمسألة الحجاب وتركوا التربية واكثروا من الصياح والجلبة بالقول والكلام وتركوا العمل والفعل . وما فعلوهُ انما هو عراقيل وقتيةٌ لا تستطيع مقاومة قوة الحقائق فلا بد لهذه من الفوز الاخير . ولا بد من عصر يعرف فيهِ قدر رجل الفضل ونابغة هذا الزمن الذي اخذ على نفسهِ المجاهرة بالحق والانتصار للمغبونين في بلاد لا تقابل فيها مثل هذه المجاهرة الاَّ بالنكران والازدراء

اما جعل القوم مسألة الحجاب دينيةً محضة . فيخالفهُ ان المسلمين فيها ليسوا سواءً في كل بلادهم وليس الحجاب شاملاً لجميعهم[1] وصاحبنا انما يريد تعديل هذا لدرجة توافق المصلحة ويسهل معها التربية والتعليم والقيام بشؤون الحياة التي يليق بالمرأة ان تكون فيها فما بالنا قد تركنا اللباب وهو السعي في التهذيب والاصلاح العائلي والتربية الحقة واشتغلنا بالقشر الذي هو الحجاب ووقفنا عندهُ مكابرة

(١) قال الاستاذ الشيخ علي يوسف في رسالتهِ من الاستانة العلية المؤرخة في ١٥ اغسطس سنة ١٩٠١ المندرجة في المؤيد الصادر في يوم الاربعاء ١٣ جماد اول سنة ١٣١٩ ٢٧ اغسطس سنة ١٩٠١

المرأة هنا ذات حجاب ولكن لا كحجاب المصرية فهو اقل منهُ بكثير في شكله واكبر منهُ وظيفة . فهو كلا حجاب في نموذجهِ . ولكنهُ امنع للناموس واصون للعرض . فلا يوجد هنا برقع ولا يشمق . ولكن خمار رقيق اسود . او ذي لون آخر يسمى " بجه " تسدله الواحدة على وجهها في مضايق الطرق وترفعهُ اذا قلت المارة وخف الزحام " ورفعهُ اكثر من وضعهِ " وقد لا تخرج الواحدة منهنَّ الاَّ وفي يدها شمسية لاتقاء حر الشمس او رذاذ المطر . وهي تنفعها كثير في الاحتجاب ايضاً عن اشعة الابصار فلا تحتاج معها الى ذلك الخمار . اه

وعناداً وليت قومنا يعتنون بالتعليم والتربية مع وجود الحجاب بينهم ويظهروا لنا قوة عزيمتهم وشدة اهتمامهم ويحيون اسم الدين في منازلهم وفي قلوب ابنائهم وبناتهم حتَّى تكون لنا تربية حقة وتعليم صحيح . اما "تحرير المرأة" ومساواتها بالرجل في كل الشؤون فلا يشمل الاَّ في العلاقات الدنيويَّة السياسيَّة النظاميَّة وهذا ما يوافق عليهِ كل من بحث في المسألة باستقلال نظر

فان كان هذا هو نصيب مثل هذه المؤلفات في هذه البلاد فلا عجب ان قلت فيها وضعف الاهتمام والاشتغال بها

السياسة

السياسة عند كل امة متمدنة علم كسائر العلوم الاجتماعيَّة . لهُ اصول وروابط يتقيد بها ويسير عليها . وما شذ عنها فهو خرق في السياسة لا يمكن التعويل عليهِ ولا تعليل النفس بهِ اذا مست الحاجة اليهِ . ولهُ مدارس خاصة بهِ واهمها الدهر والتاريخ ولا ينجح به الاَّ من كان منذ نعومة اظافره ميالاً اليهِ فيتعلمهُ في كل آونة وهو لا يعلم بهِ . لا . لأنهُ غير شاعر بهِ . بل لان ذلك اصبح عادة لديهِ اذا تركها رأى في ذاتهِ شيئاً غائباً عنهُ فيتطلبهُ حتى يجدهُ ويكمل بهِ ما نقص منهُ . ومن لفظة السياسة يفهم الغرض منها اي مسايرة الزمن واغتنام فرصهِ في معرفة المراتب الدينيَّة والاجتماعيَّة الفاضلة والمؤذية ووجه استيفاء كل واحد منها وعلة زوالهِ ووجه انتقالهِ . ولا يستغني عن السياسة احد من الناس ما دام الانسان مدنيًّا بالطبع ويجب عليهِ اختيار المدنيَّة الفاضلة مسكناً والهجرة عن المؤذية وان يعلم كيف ينفع اهل مدينتهِ وينتفع ولا يتم ذلك الاَّ بالسياسة

ونقصد الآن ما دمنا قد بينا ما نقدم الكلام على علم السياسة عندنا المنتشر في

القهاوي والمنتديات والحانات حيث يؤمها الجم الغفير منا سيما ساعة العصر ساعة انتشار الجرائد بيد باعتها من الاطفال البالغ عددهم في القاهرة وحدها زهاء المائة . والتي يتناولها منهم الغني والفقير و يقضون ساعات فراغهم في طرق مباحثات في سياسات الدول عند اطلاعهم على ما جاء بهِ روتر وما اخبر عنهُ هافاس

واغلب اولئك الذين يتنافشون في السياسة من جماعة مستخدمي الحكومة وشبان المدارس العالية المنتظر منهم لدى نيلهم شهاداتهم المدرسيَّة ان يخدموا الوطن والوطنيَّة بالتفاتهم نحو الزراعة والتجارة ولكنهم يفضلون الالتحاق بالخدم الاميريَّة ولو اماتت احساساتهم وعلمتهم على الكسل وان كانوا في غنى عنها ايضاً . حتَّى انك لو سألتهم عن عملهم قالوا انا كنا تلامذة والآن نحن منتظرون اجابة زيد في الحقانيَّة وعمرو في المالية . هؤلاء لهم في ميدان السياسة قصب السبق في حين انهم في ميدان الكسب خاملون . وقد مضى عليهم سنون عديدة في تفضيل فرنسا على انكلترا وانكلترا على فرنسا حسب اهوائهم واهواء المدارس التي ربوا فيها واهواء الجرائد التي يقرأونها وكلهم متعشمون في خلاص الوطن لتوهمهم انهُ في تعاسة وشقاء مثلهم وعلى هذا يسعون على زعمهم في خلاصهِ من الاحتلال ولو كان فكرهم في اعتلال — اذ عندي انهُ لو طبع لهم كتاب تاريخ الجبرتي مرة ووزع عليهم مجاناً وقرأوهُ لفهموا النعمة الحاضرة ولأدركوا خطاءهم ولحمدوا ربهم على ما هم فيهِ من النعم الجزيلة — اذا سألت احدهم من بدء الاحتلال إلى الآن بالاجمال ان شئت او بالتفصيل اذا احببت فهم لهُ حافظون واسأل من تشاء منهم عن ما يسمونهُ ديلونكل او هانوتو [1] ونمرة ٢

(١) ديلونكل كان عضواً في مجلس نواب جمهورية فرنسا في وزارة هانوتو سنة ١٨٩٥ للخارجية الفرنساوية . اتى مصر وساح في الوجه القبلي ووعد من رافقهُ من المصريين ووافقهُ على سياستهِ ان الانكليز سيرحلون عن مصر في اكتوبر سنة ١٨٩٥ وللآن لم يصدق وعدهُ لهم

ونمرة ٣ فهو يفسرهُ لك باحسن تعبير كأنهُ يراجعهُ كل يوم فلا يفوتهُ حرف منهُ ولا حركة . واسأل من نشاء منهم عن مجادلات المؤيد والمقطم من عهد نشأتهما يخبرك بها حرفيًّا ان شئت او سطحيًّا ان اردت وكلهم يقولون لك ان الجهاد في سبيل الاستقلال واجب فان حاجتهم بجهل الامة غنيها وفقيرها وبفقد التضامن الوطني الذي هو اكبر دعامة في الاستقلال الحق لتكون الامة حيَّة متضامنة وقفوا عن الاجابة وتمسكوا باذيال الفرار واستعملوا المواربة . ولا فرق بين البعض والبعض الآخر في سعة الادراك في هذه السياسة الاَّ ان هذا يحفظ وهذا لا يحفظ ما حدث في عهد الاحتلال للآن من الحوادث العظيمة التي كان لها بعض التأثير . ولما كان اغلب المشتغلين في هذه الامور من المصريين جماعة الاسلام ووجدوا ان الحالة باقية على ما كانت عليهِ ولم ينفعهم الاستصراخ بغلادستون وغيرهِ من علماء السياسة في اوربا اوجدوا سياسة جديدة وهي سياسة الجامعة الاسلامية وسياسة الدين فلذا ترى كلاًّ منهم يقول ان ما يراهُ في نظرهِ اولى بالاتباع وكفى. وكل رأي يخالفهُ فهو ضلال وان كان حقًّا ويستنكف ان يجتمع بغيرهِ حتَّى يقابل فكرتهُ بما عندهُ لعل احدهما يقنع الآخر ولذا تراهُ يخبط خبط عشواء يكتب بالدين والاسلام وهو ابعد الناس عنهما. ومن البديهي ان فاقد الشيءِ لا يعطيهِ . ولو شئنا تعداد الآراء التي كتبت في مثل هذه الخيالات في الجرائد لطال معنا القول. وحديث الجامعة والدين يلذ فيهِ البحث لمن لا يدرك حقيقة الجامعة ولا الدين مثلنا وهو كذلك ملذ للقارئ والكاتب لا لأنهُ شيءٌ فكاهي مما تعودنا اللذة منهُ فقط . بل لأن القارئَ يجد ما تودهُ نفسهُ وما تصبو اليهِ اميالهُ " ان الانسان خلق هلوعاً اذا مسهُ الشر جزوعاً واذا مسهُ الخير منوعاً "

فيطالع ما يكتب في هذا الموضوع بانشراح خاطر وسرور نفس وهكذا الكاتب

يرى امامهُ الموضوع كبيرًا متشعبًا فيجري فيهِ قلمهُ حتى لو شاءَ الكتابة فيهِ إلى ما شاءَ الله ما استعصى عليهِ القلم ولا خانتهُ القريحة . ولكن لا ندري ذلك وعاقبتهُ وهل تصح الاحلام . ام الحقيقة هي انهُ من بعد موت الرسول "صلى الله عليهِ وسلم" والخلفاء الراشدين لم يقم للاسلام جامعة قط . ولدينا سير الاسلام واقوال مؤرخي الاسلام انفسهم في ذلك فان بعد موتهِ "صلى الله عليهِ وسلم" والخلفاء الاربعة لم يقم للاسلام جامعة واللبيب يعلم هياج المسلمين وقيامهم في زمن الصديق "رضي الله عنهُ" . وانهُ قام في بدء خلافتهِ من قام لولا تهدئة الخواطر بهمتهِ [1] وبعد موتهِ لولا اشتغال امير المؤمنين عمر بن الخطاب "رضي الله عنهُ" في الغزو والفتوح لحصل ما حصل في خلافة خلفيهِ الاماميين عثمان وعلي "رضي الله عنهما" ودولة بني أُمية فيها من التفريق بين ممالك الاسلام ما نعلمهُ وتاريخ الدول الاسلاميَّة التي خلفتها حاو من الفشل وتفريق الكلمة بين الاسلام واهلهِ ما فيهِ

ومنذ تبوأَت دولة آل عثمان عرش الخلافة للآن ما سمعنا باهداء سلام من ملك مسلم عربي لملك مسلم تركي حتى صدق قول القائل

الضب والنون قد يرجى اجتماعهما وليس يرجى وداد الترك للعربِ

بل كلهم يستنكفون تبادل السفراء في عواصمهم مع انهم يقبلون على الرحب والسعة سفراء الممالك الاوربية فوا اسفا

ما ذا التقاطع في الاسلام بينكم وانتم يا عبـاد الله اخوانُ

(١) لما توفي "النبي صلى الله عليهِ وسلم" ارتدت قبائل عمان والبحرين ومهرة وحضرموت وظهر مدعو النبوة طليحة في نجد ومسيلمة في اليمامة وقيس قاتل الاسود في اليمن وهمَّ بالعصيان اهل مكة والطائف وسائر اقليم الحجاز فوجه ابو بكر "رضي الله عنهُ" همتهُ لقمع هذه الفتنة وبعث اسامة بن زيد الى البلاد الشامية بجيش هائل اوقع الرعب في قلوب العرب اجمع وهو اجل عمل قام بهِ هذا الخليفة الاول ومن جاء بعدهُ فهو عيال عليهِ

وها هو حاضر الاسلام في الاستانة منقسم على نفسهِ وكلهم احزاب وشيع وكذلك الحال في مصر كثيراً ما تكدر الصفا بين سمو مولانا الخديوي المُعظم وجلالة مولانا امير المؤمنين . والفضل في ذلك لجماعة الاتراك الذين اموا مصر اخيراً فان منهم جماعة ضد جماعة كلهم هاجون بعضهم بعضاً باقبح الالفاظ وارذل النعوت

وكل فريق يؤلف ضد الآخر الكتب والرسائل ومن هذه الكتب ظهر عدد كبير كما قدمنا وكان ذلك سبباً في تعكير العلاقات بين مصر والاستانة . حتى اصبح البلغاري لائقاً للالتفات السلطاني اكثر من المصري واصبح ابن الاستانة ينظر الى ابن مصر باحتقار وازدراء بعيشك قل لي هل من الجامعة ان يشتغل السلطان بالهدايا تتبع الهدايا الى ملوك اوربا وذوي الامارات الصغيرة ويدع مثل سلطان مراكش وامير الافغان لانسمع شيئاً عن مهاداتهِ لهما ولو بالسلام فضلاً عن الاتحاد يداً واحدة والاجتماع على كلمة واحدة مع انهُ لا يتصور ان يبغي بعضهم على بعض او يطمع في زوال ملكهِ

افهل هذه هي حقيقة السياسة التي اضعنا فيها الوقت الماضي كلهُ . ام من الحقيقة وحسن السياسة القول ان جميع ممالك الاسلام تحتاج لفتح جديد ويد الله للتأييد .

ولا يتم ذلك ولا يتحقق شيء مما يقولون الاَّ بالعلم وبث المعارف حتى يبعد ذلك التغرير المشاهد بين المسلم واخيهِ وحتى لا ينتظر كل منا وعد ساسة اوربا الاستقلال وكل منا متعلق بدولة ولو كان هذا التعلق اشبه بالمتعلق باذيال الهواء او المستجير من الرمضاء بالنار

الجرائد السياسية المصرية

اول الجرائد السياسيَّة المصريَّة التي أُنشئت في مصر جريدة " وادي النيل " التي كانت تصدر مرتين في الاسبوع على شكل كراس [1] وكان يحررها ابو السعود افندي أُنشئت بمصر ١٢٨٣ — ١٨٦٧ ثم عكف من بعدها جماعة السوريين لانشاء الجرائد السياسيَّة ومنهم تنبه المصريون على انشاء الجرائد بكثرة تلك حقيقة نذكرها ولا نبخس الناس اشياءهم . والجرائد يقال عنها انها مقياس كل أُمة في ارتقائها ونموها . فكما تكون الامة تكون جرائدها ومن رام ان يعرف جرائد امة فليذكرها ليتضح لهُ حالة تلك الامة وتقدمها او تأخرها باجلى بيان . والغرض من الجرائد السياسية العلم بحقائق الامور الجارية . والوقوف على الاخبار بين البلاد وبعضها فاذا عرفنا ما ذكر نقول عن جرائدنا السياسية المصريَّة والأَسف ملءَ الفؤَاد انها دون سائر الجرائد التي تنشئها الطوائف الاخرى المعاصرة لنا في معرفة الاخبار وذكر الحقائق . والسبب في ذلك انهُ يحرر فيها كل كاتب وجد في نفسهِ مقدرة على حمل الاقلام وتجشم الآلام . واحتمال اللأْواء ورزق قلباً ميتاً وكان ذا استعداد ليعيث في ارض الكتابة إفساداً . واحتقب من الاوزار وهب من سنة الضياع فلهذا تنشأُ الجرائد السياسيَّة المصريَّة واصحابها غير كفوء لما انتدبوا اليهِ . وزد على ذلك انهم يتكلون على مساعدة الغير مساعدات ماديَّة وادبية

ويزداد عددها وعدد النسخ التي تطبع منها ايام اشتداد الازمة ووقوع الحوادث العظيمة مثل ايام الحروب والمشاكل الداخلية حيث يكون مجال القول لها فسيحاً

(١) اما الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) فقبل ذلك بكثير اذ اول صدورها كان في سنة ١٢٤٥ هجرية

فتهرف بما لا تعرف سواء كان بالكذب او الصدق. والكذب عندها اولى وهو غنيمة باردة . فان نشر الاراجيف المهيجة للخواطر . ونشر الاباطيل المثيرة للاذهان تروج بضاعتها لما في طبع الناس من الاقبال على قراءة ما يقرع اذهانهم ويهيج خواطرهم صحيحاً كان او باطلاً ويفضلونهُ على قراءة الاخبار الصادقة المعتدلة الرواية المجردة عن التزويق والتمويق . وهذا شأن اغلب الجرائد السياسيَّة المصريَّة وشأن اصحابها

فان منهم كل خلي من مبدإ قويم كلّ محب للاباطيل والاراجيف والاضاليل بدلاً من الحقائق . ولذلك فلا ثبات لها في الاعتدال . وفي انصاف القراء بتقرير الحقائق . وانما ثباتها في عرض البضاعة الرائجة من معارضة الحكومة والحقيقة. مثال ذلك ما نشرهُ بعضها في المدة الماضية ايام حرب السودان . قال ان الجيش أُبيد وان التعايشي قطع الطريق عليه واثخن في العساكر الجروح . ولما تم الفتح ووصلت بشائر النصر اختفت تلك الاباطيل فمحى الاثر ولم تبق العين . ومن كتابة تلك الجرائد يظهر انحطاطها في الفكر وسقم الفهم . فان المواضيع التي تكتب فيها تقرير في تقرير حتى انهُ ليسهى على كاتب الجريدة منهم حالة افكارهِ السياسيَّة فيشحنها باقوال الشتم والسب في الدول "كانكاترا" مثلاً او "فرنسا" حسب اهوائهِ واميالهِ وكلٌّ يغني على ليلاهُ

على ان القارئ لتبين لهُ حقيقة من ذلك وهي ان المقصود تسلية الخاطر وقتل الوقت وقت الفراغ عصراً هذا وناهيك عمَّا يدرج فيها يومياً من السباب والشتائم وقذف اعراض البعض من الوجهاء عدا عن ذم سياسة الحكومة وتقبيح كل افعالها حسنة كانت او غير حسنة على حد سوى. مثال ذلك. نعت الوزراء بالاستسلام وبانهم لا يهمهم ان عاشت الامة او ماتت لترقية المصالح الانكليزيَّة الى غير ذلك من القول التافه العقيم

وصاحب الجريدة منهم متسرع بحرفتهِ في اظهار فكرهِ في اي موضوع كان مسترسل في الكتابة بلا تروٍ مدعٍ بانهُ العالم في كل فن ومطلب سواءٌ كان نصحاً سياسياً او صحياً . ولو كان ممن صدقت فيهم الآية " أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم "

اما النصح السياسي فهو على ما يذكر القارئ التشيع لاحدى الدول ضد الاخرى ولا يسهى عن القارئ عكف الجرائد مدة العشر السنوات الماضية على البحث في جعل نفوذ " فرنسا " اعظم من نفوذ " انكلترا " على ان ذلك لم يجدها نفعاً سوى جعل الامة فريقين فريقاً متشيعاً مبدؤُهُ انكليزي يهوى مسالمة المحتلين بقدر ما يمكن وفريقاً متشيعاً على فساد يعكف على المناداة بالانجلاء والتعلق باهداب الساسة في اوربا . ولكن ذلك لم ينتج ثمرة سوى ضياع الوقت وايغار الصدور عدا عن ظهور بهتان تلك الجرائد ليصدق فيها قول " عمر " من تخلق للناس بغير ما فيهِ فضحهُ الله . واي فضيحة للجرائد المتشيعة لفرنسا ضد انكلترا من كذب ديلونكل وبهتان هانوتو ونفاقهِ فقد تمنطقت بهما وبغيرهما تلك الجرائد لظنها فيهم ان البلاد تستقل بجعجعتهم فكانوا حيات للدين واليقين . وللجرائد نصح آخر سياسي دليلهُ ايام حرب الانكليز والترنسفال . فقد كانت تحرض الجيش المصري في السودان على شق عصا الطاعة في معرض الحث على النخوة والمروءة وتعير الجنود المصرية على حسن طاعتها وحسن ولائها في معرض التباهي بصفاء نيتها وسلامة طويتها وترجف بان زمن التمرد على قوادها قد تهيأ . ولكن ذلك كان منها على سبيل الانكار او على سبيل الاستفهام ولاسيما عند الاطناب في شجاعة البوير واشاعة الاشاعات الكاذبة عن الانكليز والاعجاب بما تفعلهُ امة صغيرة مثلهم والتحسر على امة كبيرة مثل المصريين وزد على هذا تعييرها الامة وجيشها انها تهاب اللقاء جبناً وتخلد الى السكون ضعفاً

وتوانياً . كل ذلك لكي يعود عليها بالمغنم والربح ولو كان فيهِ ابعاد المودة من قلوب المحتلين للمصريين وبالاخص المسلمين ولتوقع النفور بينهم والجفاء . ونحن امة ساد الجهل فيها وقصرت افكارها عن فهم الحقائق وادراك ما ينفع وما يضر . وليس الحال مقتصراً على النصح في السياسة فقط بل لهذه الجرائد نصح آخر في المتجر ضررهُ اشد وقعاً مما تقدم فانها بمقدار قليل من المال تأخذهُ من احدى الشركات او "البورص" تعلن طرق الخداع والنصب وتحض الامة الى الولوج في ابواب الشركات المجهولة لديهم . ثم بعد حين تأخذ باللائمة عليهم لداعي ما خسروهُ واضاعوهُ في شراء الاسهم والسندات حتى وقع الناس من فضل هذه الجرائد في شرك الخراب وافتقر كثيرون منهم وساءت امورهم . وللجرائد نصح آخر صحي تدعيهِ وهو الكتابة زمن تفشي الامراض التي تنتشر بالعدوى ولم يدرك سيرها الآن احد حتى ولا نطس الاطباء . فانها كثيراً ما تكتب كتابة يصدقها جماعة العامة ويساعدها في الكتابة بعض الاطباء الذين لم يدرسوا علم "البكتريولوجيا" فينشأ عن ذلك خطر عظيم تبيت بهِ البلاد عرضة للوباء . ونذكّر القارئ من نتائج ما كتبتهُ الجرائد حادثة مصر القديمة التي هجم الرعاع فيها على عمال التطهير من رجال الصحة وحادثة الازهر التي اضطرت البوليس الى استعمال القوة في ايام الهواء الاصفر . وحوادث الوطنيين في بور سعيد . وحوادث هجوم الرعاع في الاسكندريَّة في عام ١٨٩٨ وهنا مجال لتفكرة القارئ في ضرر الجرائد بالنصح الصحي الذي تدعيهِ وهي لا تعلمهُ

ولقد سببت الجرائد التي لا تنفع المجادلات والمشاحنات حتى وقعت الامة في انقسامات شتى فنحن الكل مصريين ولكن في الدين مختلفين . فاذا سنت الحكومة قانوناً " وهي الآن حكومة دستوريَّة تعد من اول طبقة بين حكومات الشرق " فانا جميعاً نقوم قومة واحدة لنرى هل هو مطابق للدين . فان وجدناها

وافقت الشرع الاسلامي قبلنا القانون نحن ولو كان مخالفاً لسوانا من الآخرين المسيحيين الذين تهضم حقوقهم لما لنا من الاغلبيَّة بالنسبة الى عدد كل فريق . فيسود الشقاق اثر ذلك ونحن احوج الى الالفة ولهذا تجد الاحزاب في مصر حزب للمسلمين وآخر للمسحيين

تسمي الحكومة المسائل التي تختلف فيها مسائل اداريَّة كما تسمى في جميع بلدان العالم . اما الجرائد فتسميها مسائل دينيَّة طائفيَّة يخشى منها على الدين تبتدئ صغيرة لا تكاد تذكر فتوسعها الجرائد حتى تتسع وتوشك ان تكون فتنة داخليَّة . ولا الجرائد تفهم الحقيقة ولا الاهالي يفهمون . ولدينا شاهد وهو منع الحج لوجود الطاعون في مكة المكرمة منذ سنتين . والقارئ لو استقرأ هذه المسألة التي شغلت الرأي العام الاسلامي في مصر اربعة اشهر وهاجت لها العواصم والقرى . لوجدها مسائل عموميَّة يهم الامة التسليم بها لأن الدين لا ينافي ذلك في مثل هذه الاوقات . الاَّ ان الاحقاد الجرائديَّة والاحزاب المتأخرة عدوة للوزارة الفهميَّة مهما عملت من الاعمال النافعة . والامة لجهلها حقيقة دينها تحذو حذو نفر قليل من اصحاب الجرائد وتطلب طلباتها سواء كان اصحابها مخطئين ام لا . وهذا سر ودليل آخر على تأخرنا . والاَّ فلو كان فينا عدد عظيم ممن تعلم لكان الحال ارقى مما نحن عليهِ الآن

خذ لهذا مثلاً آخر مسألة اصلاح المحاكم الشرعيَّة التي شغلت الاذهان زمناً طويلاً وهاجت لها افكار العامة تجدها حقيقة تدل دلالة صريحة على انحطاطنا . والاَّ فلو كان فيها ضياعٌ لسياج الدين ضياع للشرع ما قبل الاصلاح المتفقهين في الدين ووضعوا لهُ التقارير وطلبوهُ . ولكن الجرائد قامت صائحة حائشة الامة على الاحتجاج على عدم مس المحاكم الشرعيَّة . وكان كل فقيه وعريف في القرى يتنقل من مكان الى

مكان يحرض الاهالي المسلمين على الاحتجاج وتقديم العرايض والتلغرافات للمعيَّة السنيَّة بمصر كأن اصلاح المحاكم الشرعيَّة جرم كبير وارتكاب محرم . وكان نتيجة ذلك كف يد الحكومة ورجالها حتى أُلفت لجنة لمشاهدة المحاكم ووضع تقارير عن الحالة . والله يعلم كم ناب الاهالي من تعطيل المحاكم وكم ناب الامة من العار لدى الامم الاخرى . ولا يزال قصار العقول سقماء الافكار واجدين على الوزارة حاقدين عليها . والسبب انما تأتى من الجرائد التي يقرأ فيها العداء والبغضاء ولا يخفى ما للجرائد من التأثير — اذ الجرائد الدوريَّة اسرع انتشاراً واقرب الى تناول الناس من الكتب ولها مشتركون مخصوصون ومواعيد ظهور تنتظر فيها بكل تشوق ولها باعة يعرفون مسارب طلابها ومنتديات عموميَّة تعرض فيها بخلاف الكتب فانها خالية من كل هذه المزايا في النشر[1] — هذا وللجرائد الاسلاميَّة عادة غير مستحسنة وهي انهُ عند وفاة مسيحي لا تترحم عليهِ فتلومهم الطوائف الاخرى في المسلمين التعصب خصوصاً لتكرار وقوعهِ فضلاً عن تكرار اثارة الاحقاد والعداوة وتوسيع الخرق بين المسلمين والمسيحيين وعلى ذلك يبقى العداء منصوباً بيننا و بين اخواننا المسيحيين الوطنيين من جهة و بين الانكليز من جهة أُخرى . وكل هذه الاسباب لها تأثير على العامة و بعض الخاصة ولكن عقلائنا ولله الحمد قد ادركوا ذلك وعلموا هذا الشقاق فصاروا لا يثقون بقول امثال هذه الجرائد التي تتعمد التفريق بين مجموع الامة على حد قولهم " فرق تسد " غير ان هذه الجرائد التي تظهر بهذا المظهر حياتها قليلة وقل ان يمر عليها الحول

والسبب إما لأن البلاد والامة عرفت عدم حاجتها اليها . او لأن اصحابها انقطعت عنهم الامدادات الخارجيَّة وحينئذٍ لا تلبث الأعشيَّة او ضحاها او لسوق

(١) قول احمد بك الحسيني في احدى مرافعاتهِ امام محكمة عابدين في يونيه سنة ١٩٠٠

اصحابها للمحاكمة لجريهم في كتابتهم على طرق مستهجنة. مثل التعرض للشخصيات فحوكمت وحكم على اصحابها

وعدد الجرائد السياسية المصرية التي ماتت في الخمس سنين الماضية ٩٧ جريدة سياسية كنا نحب درج اسمائها لولا خوف الاطالة غير اننا نقول ان الذين حوكموا من اصحاب هذه الجرائد لاسباب الهجو والسب والشتم والتزوير تسعة. منهم اثنان لطعنهم على المرحومة جلالة ملكة الانكليز وآخر ساقط الآداب لهجوه سمو مولانا الخديوي الاكرم[1] والباقون لشتمهم الامراء والعظماء ولتزوير الاوراق ولم يقتصر الحال على اصحاب هذه الجرائد بل ان بعض وكلاء هذه الجرائد حوكموا ايضاً لاختلاسهم اموال الاشتراكات فيها وعددهم كذلك لا يقل عن ستة

هذا هو حاضر جرائدنا المصرية السياسية نذكره بلا التفات الى التحيز لفريق دون آخر لما في الحق من اللذة ولما في الصدق من عدم التمييز والله عليم بذات الصدور

المجلات العلمية

الغرض من المجلات العلمية تمحيص الحقائق التاريخية وتخليص العلم من كل شائبة. مع ذكر ما اهتدى اليهِ العلماء في بحثهم. والحض على بث التعليم والاستفادة بالطرق النافعة. ودليل كثرة المجلات العلمية التي من هذا القبيل بين كل طائفة مبشر بتقدم العلم ونمو درجتهِ بين افرادها. ذلك لما تبرزه المناظرات فيها من الحقائق الراهنة التي ترسخ في اذهان قرائها ولقد ادرك الاسلام ذلك في

(١) بقصيدة صدرت يوم تشريف سموه من الاسكندرية الى مصر في ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٧

زمن بهجتهِ وعزهِ ولو لم تكن المجلات معروفة في ذاك الحين معرفتها في وقتنا الحاضر . ولنا في جمع المأمون للعلماء ومناظرتهِ اياهم المرة بعد المرة في مواضيع شتَّى من العلوم العالية ما يكفي للاستدلال بان العلم كان اذ ذاك تحت حماية الخلفاء وكانوا يرعونهُ حق رعايتهِ . اذ كانوا يستجلبون رجالهُ الى نواديهم بما يبذلونهُ لهم من واسع النفقات وما يعينون من الجوائز[1] حتى تكاثرت وفود العلماء على ساحاتهم وازدحمت الادباء افواجاً على ابوابهم . وهذا مما كان باعثاً لهمم الطالبين على النشاط . فعمت الفائدة وانتشرت المنفعة . وهذا المفضل الضبي والاصمعي وابو عبيدة واحزابهم ممن تقدمهم او تأخر عنهم ولولا تلك الجوائز الطائلة التي حصلوا عليها من المهدي والرشيد وغيرهما لما وصلت العلوم المأثورة عنهم الى ما تراهُ في سير السلف . من انتشارها بين ظهرانيهم ولكن زمن هؤلاء الخلفاء انقضى واصبحنا على ما تعلم وشملنا السبات العميق المنتظر لتقلب احوالنا وتغيير ملوكنا وامرائنا فتقلص ظل المعارف من بيننا . الاَّ انهُ لم نعدم رجالاً ربوا في مهد العلم والفائدة فقام منهم افاضل كثيرون خدموا العلم بعلمهم وعملهم ومن هؤلاء فاضلان "مسيحيان" عرفا الحقيقة باختبار الزمن فانشأ مجلة "المقتطف" منذ خمس وعشرين سنة تملي على نبهاء الامم الشرقيَّة باسرها اسلاميَّة او مسيحية ما يجد من المباحث الفلسفيَّة العلميَّة المفيدة. فترى تارة في احد اعدادها مباحثات فلاسفة العصر في اوربا مترجمة عن اللغات الافرنكيَّة للغة العربيَّة الشريفة. وتارة يقابل صاحباها ما ذكرهُ العرب قديماً مع ما حققهُ علماءُ الافرنج حديثاً فيتسنى لهما على هذا الاسلوب تمحيص الحقائق من القولين . او ترجيح احدهما على الآخر ثم يهديانها للقراء . وفي عمل هذين الفاضلين خدمة جليلة لأهل اللسان

(١) لما ولي المأمون الخلافة استدعى من القسطنطينية عالماً يسمى « ليون » فابى توفيل ملك القسطنطينية ان يرسلهُ فكان بينهما سنة ٨٢٥ ميلادية حرب

العربي الجميل مما لو كانا معاصرين لتمدن الاسلام ونموهِ الاول السابق ذكرهُ لانهالت عليهما النعم والاكرامات كما انهالت على من سبقهما من العلماء المسيحيين في زمن المأمون وبعدهِ

وقد كانا والحق اولى ان يقال بعملهما هذا قدوة لنا معشر المسلمين في انشاء المجلات العلميَّة الاسلاميَّة الاَّ ان مجلاتنا الاسلاميَّة المحكي عنها ظهر كثير منها ثم اختفى. حتى انهُ من مدة ست سنين الآن ظهر ١٠٤ مجلات ثم ماتت وكأن لم يكن لها من اثر

والسبب قلة الاستعداد لمثل هذا الامر من الذين يقدمون عليهِ منا

وما يكتبهُ اصحابها فيها دليل عدم الاستعداد. فمن كتابة تكررت بعبارة سقيمة فيها موات اللغة. ومن طرق للمباحثات التي لا تجدي نفعاً. ومن اشعار ادرجت في العشق ومن وصف للخمر او للعمامة او لصبي او صبيَّة او لدابة او قطع من الحكايات التي لا تغني فتيلا نشرت وتكررت وكل ذلك بسجم الالفاظ والاتيان على خيالات تروق لمن هو مثلنا في التأخر علماً وعملاً وكفى شاهدًا انهُ لا يوجد لنا معشر المسلمين مجلة مثل مجلة الضياء تعتني بخدمة اللغة اليوم حتى تعيدها لما كانت عليهِ قبلاً مع ان منا رجال اللغة من الازهريين [1] السابقين وغيرهم

وناهيك بالمناظرة التي يحمى وطيسها بين المناظرين في جرائدنا العلميَّة والتي كثيرًا ما تؤدي بهم للهاترة والمشاتمة وفي الختام تجلى كما يتجلى النهار على الاحلام. فتنقشع غيوم تلك السفسطات والاوهام. ولعل ذلك سبب ايابهم خاسرين مرذولين

(١) ومن العجيب ان علم اللغة لا يدرس في الازهر كبقية العلوم التي تقرأ فيهِ مع ان علم اللغة هو العمدة في العلوم والاساس التي تبنى عليهِ ومن الاسف ان هذا العلم ليس هو وحدهُ الذي فقد من الازهر بل لهُ نظائر عديدة ايضاً وفق الله العاملين على الاصلاح الى اعادتها اليهِ آمين

من ميدان المجلات العلمية دون باقي الطوائف ولو كان عددها في الوقت الحاضر تسعاً وكلها تظهر بمظهر المجلات التي تنسب الى العلم وليس فيها منهُ غير شوائب كدر الاخلاق عنهُ والتمويه والمواربة فيهِ ما عدا واحدة او اثنتين . ولعل لهم عذرًا يقبل ما داموا هم ومجلاتهم سبباً آخر يغمسنا في سبات الانحطاط والتأخر . في وقت نحن احوج فيهِ الى الاصلاح بذكر حقيقة الواقع

غير انا لا نبخس في الختام هذه الجرائد حقها ما دام يمكننا القول عن فائدتها انها اتت بثمرة ترغيب الامة في المطالعة وايجاد الميل الى الوقوف على ما يكتب وان كان بحثاً في خلط الحق بالباطل وتمويهِ القول الصحيح بالقول الهراء فسبحان من جعل الداء انجع علاج للادواء . وهو رب العرش العظيم

الجرائد الدينية الاسلامية

الغرض من الجرائد الدينية . ترويض النفوس بالتأمل في الدين . واسرار احكامهِ السامية . والحض على احياء اوامرهِ الصحيحة التي دفنها تقلب الزمن وتغير افكار الرجال بالاختلاط المشين . وعلى اماتة باطل ظهر في الدين من عمل ارباب البدع الذين لا اخلاق ولا دين لهم واسداء النصيحة بالاحتراس من الوقوع في سيئات نهى الدين عنها ولو كانت صغيرة في شأنها . والامر بالتفكر في الآخرة وما يلزم لها من صالح الاعمال والارشاد للسلوك في طرق مأمور بها من الله جل وعلا . توصل الانسان للصواب المبعد عن المؤاخذة لديهِ وتقرب الانسان بالثواب اليهِ . وحبذا هذا لعمري من غرض سامٍ ومقصد حميد . خصوصاً في وقت أُلبست فيهِ مبادئ ديننا غير لبوسها بواسطة اهل الفساد والجهل الذين لا يخلو منهم زمن . حتى اصبح يلتبس على الفهيم المدقق فهم حقائقها التي كان لا يرتاب فيها البدوي الساذج

فما دام الامر على ما ذكر فليعمل بأمر الله من اوتي العلم قياماً بالامر وغيرة على الدين فقد قال عزَّ من قائل — فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون — وقال تعالى ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون. لانهُ اذا دام الحال على ما نرى فالعاقبة انحطاط في الحياة الدنيا وهلاك في الآخرة. وقد آن لنا ان نبحث عن الجرائد الموجودة لهذا القصد وننظر اليها نظرة ناقد لنتدبر أعندنا منها الكفاية ؟ ؟ وهل احاط الموجود منها بالاغراض المذكورة

الجرائد الدينيَّة الاسلاميَّة احدث عهداً من سواها من الجرائد السياسية والمجلات العلميَّة وعددها في الوقت الحاضر لا يتجاوز الاثنتين او الثلاث يحررها بعضهم من متخرجي المدارس وبعضهم من متخرجي الحرف والصنائع المجتهدين في تحصيل المعارف. ينشرون فيها بقدر الامكان ما يمكنهم معرفتهُ من امور الدين ووصاياه. واكثر ما فيها ما ينقلهُ اصحابها من الكتب المؤلفة ليبينوا الاوامر والنواهي بقدر ما تستطيعهُ مداركهم وهذا عدا عن كونهِ غير ممكن اعتقاد الصحة فيهِ بالنسبة لقدر الناقلين فهو قليل بالنسبة لما يلزم وغير كافٍ للتأثير على الاخلاق والعقول الى غير ذلك مما هو جوهري في انشاء مثل هذه المجلات [1]. ثم هم فوق ذلك يخلطون في المواضيع بين ديني وسياسي واخباري الخ. حتى لا نعود نعرف انها مجلة دينيَّة الاَّ من اسمها. وحتى ينقلب الخير المقصود شرًّا بواسطة هذا الخلط

(١) لا ننكر ان مجلة المنار الاسلامية لها اليد الطولى الآن بالتنديد على اهمال العلماء لواجبهم والتنفير عن البدع والخرافات التي لصقت بالدين كما انها تتابع المقالات المفيدة في الاصلاح الديني وانا نرجو لها نجاحاً دائماً ونأمل من محررها ان لا يجعل للشخصيات عليهِ سبيلاً وان يوالي النصح والارشاد بالتي هي احسن والله لا يضيع اجر من احسن عملاً

الذي لا يراعون الذوق في التأليف بين مواضيعهِ وذلك من عدم تمكنهم فيها وضعف كفاءتهم لها . والادهى انها تظهر حيناً وتختفي احياناً . وفي كل ذلك من دواعي الاسف وبواعث القنوط لكل ذي شعور بحاجات امتهِ ما لا يقدر

والخلاصة ان جرائدنا الدينيَّة الحاليَّة ليست مما ينتفع بهِ كل الانتفاع . والاهتمام بأمرها من اهم الواجبات ليس فقط لأنها عديمة النفع . بل لأن هناك امراً يجعل الضرر مزدوجاً . وهو انتشار مجلات المذاهب الاخرى الدينيَّة بيننا انتشاراً "يكفل لهُ الزمن واهمالنا اذا دام" عدول الامة بأخلاقها ومشاربها عن شرع الاسلام وذوق آدابهِ وطرق سلوكهِ [1] واظن ان هذا الحال وحدهُ كافٍ لانهاض هممنا واشعال غيرتنا

وتوجيه افكارنا لصد هذا التيار الجارف والعمل العدائي الذي يعملونهُ في جرائدهم بانتظام ويظهرون فيهِ بمظهر الناصح المحق والمرشد الامين ومن اين لنا هادٍ نستدل بتعاليمهِ في دياجي هذا التضليل وقويٌّ كريم نعتز بحولهِ على مصائب هذا الزمن غير علمائنا الكرام وعظماء امتنا الفخام وقد سبق لنا الكلام عنهم واحوالهم لا ترضي الرجل الشهم الغيور

فاللهمَّ يا منير بصائر العلماء بالحكمة آنس عواطفهم بنار مباركة من عندك ويا رافع شأن الاعاظم بالغنى والجاه علمهم ان يعرفوا فضلك في انفسهم لكي يتآزر الفريقان ويتحدا محافظة على شريعتك الغراء الضامنة لهم سعادة الحياتين الباقية والفانية انك انت السميع المجيب

---

(١) خصوصاً اذا عرف القارئ ان كثيرين من المسلمين مشتركين فيها

خلاصة القول عن الجرائد

واجمال القول في الجرائد اننا معاشر المصريين وبالاخص المسلمين ليس لنا مجلات علميَّة بقدر ما للطوائف الاخرى ولا ما يقاربها وبالاخص السوريين . اذ لا توجد بيننا مجلات قضائيَّة ولا زراعيَّة ولا طبيَّة ولا تجاريَّة ولا مدرسيَّة . وان وجد شيءٌ منها بلغتنا العربيَّة فانما هو بأيدي اخواننا السوريين الافاضل فلهم في ذلك فضل الاسبقيَّة فان لهم اربعة مجلات قضائيَّة وليس لنا واحدة منها . وثلاث مجلات زراعيَّة وليس لنا منها الاَّ واحدة . واربعة طبيَّة ولا شيء لنا منها . وواحدة تجاريَّة ليس لنا منها ايضاً . ومجلتين نسائيتين وليس لنا منها الاَّ واحدة فقط ولطائفة الاقباط مجلة مدرسيَّة وكان لنا واحدة مثلها فماتت

ذكرنا ذلك بياناً للفرق وما نحن عليهِ من الخمول ولم يكن هذا الاحصاءُ منا رجماً بالغيب بل هو اعتماداً على تقرير مصلحة البوستة وحسبك بهِ تصديقاً

الوطن والوطنية

الوطن تعريفاً هو الجهة التي ينتسب الانسان اليها بصفتهِ فرداً من افرادها خاضعاً لاحكامها ونظاماتها سواءٌ كان ذلك بحق الولادة او الاقامة او الانتساب للامة . اما الوطنيَّة فهي الشعور الذاتي برابطة الانتساب التي تجمع بين الانسان ووطنهِ ومن يشترك معهُ في هذه النسبة اي بوحدة مصلحة الطرفين والضرورة السعي في رفعتهِ وتقويتهِ والذود عنهُ رفعة وتقوية وذوداً عن المصلحة الفرديَّة وقد يشعر الانسان بارتياح وحنين الى الوطن خصوصاً عند الابتعاد عنهُ ولكن هذا

تأثير طبيعي عام يجعل النفس تألف الاشياء والمناظر والحوادث التي تعودتها او نشأت فيها وتشعر باوحشة عند الابتعاد عنها . فهو اذًا ليس قاصرًا على الوطن بل قد ينشأ ايضًا نحو بلاد اجنبية عنهُ يكون قد عاش الانسان فيها زمنًا وآلف معاهدها . هذا هو الوطن وهذه هي الوطنية بحسب التعريف الاصح . وان كان لا يحتمل ان يختلف في ذلك دقيقو البحث في المسائل الاجتماعية والسياسية الاَّ انهُ لم يكن المتفق عليهِ شكلاً في جميع الازمنة . واقول شكلاً لان الجوهر في الوطنية وهو وحدة المصلحة امر اتفقت عليهِ الشعوب والجماعات عفوًا من حين ما نشأ الاجتماع على وجه البسيطة بحكم الضرورة الطبيعية . فقبل ان يتنبه خاطر اول جماعة من الجنس البشري الى معنى الاجتماع اتحدوا بدون بحث وما كان الحامل على ذلك غير الاضطرار والحاجة المصلحية . ومثل هذا الاتحاد الطبيعي ظاهر في جميع مظاهر الطبيعة . فخليات العضو الواحد من الجسم متحدة لوحدة مصلحتها وحاجاتها الى تنازع البقاء في وسط الجسم كلهِ وهكذا عموم الاعضاء اي الانسان في حالة الانفراد بالنسبة للوسط الذي هو قائم فيهِ سواءٌ كان عائليًا او اجتماعيًا او سياسيًا . وهكذا العائلة بالنسبة للوسط القائمة فيهِ والامة والبلاد التي تنتسب اليها . وهكذا قل عن الناحية بالنسبة للمركز والمركز بالنسبة للمديرية والمديرية بالنسبة للحكومة والحكومة بالنسبة للحكومات وهلم جرًّا . وما يقال عن النظامات الاجتماعية يقال عن النظامات الصناعية او التجارية او الفنية وغير ذلك فلتجار صنف معلوم في ناحية واحدة مصلحة ووحدة خصوصية يشعرون بها ويهتمون لشأنها اهتمامًا خاصًّا ولجميع تجار الناحية اجمالاً مصلحة ووحدة اخرى قائمة بنفسها ولجميع تجار المديرية او البلاد او العالم قاطبةً وتكون هذه الوحدة وهذا الاتحاد تابعًا للمصلحة الحقيقية المسببة لها فتقوى طبعًا عند ما تكون خالية من تأثير

المصلحة الافراديَّة وعند ما يكون هذا التأثير غير محسوس وتضعف بضد ما ذكرنا. فالوطنية اذًا قائمة في الحقيقة في وحدة المصلحة ليس الاَّ. فالامم الراقية التي تدرك هذه الحقيقة تماماً لا تخلط فيها وتبني جميع اعمالها وسياستها عليها فتصبح قويمة الدعائم يندر ان تفعل فيها نقلبات الدهر فعلاً محسوساً اما في الامم الغير راقية تماماً فالوطنية الصحيحة لا تعرف انما هي تتحد والاصح ان يقال انها تجتمع بحكم الحاجة لقضاء الغرض الذي ترمي اليهِ ولكن مثل هذا الاتحاد لا يلبث ان يزول بزوال الغاية لعدم ادراك الافراد اساسهُ الصحيح ورسوخهِ في اذهانهم. ولا يخفى انهُ يصعب على جميع الناس تحديد هذه المصلحة ومعرفة ماهيتها ومن اين تبتدي واين تنتهي ولكن لا اختلاف في حقيقتها عند الباحثين. فلكل بقعة في الارض مزايا طبيعية واقتصاديَّة خصوصية يشعر سكانها بالميل والحاجة الى احتكارها وتوسيع نطاقها ما امكن وليس من باعث لهم في ذلك غير حب المصلحة الذاتية وخدمة الانسان نفسهُ. ولارتباط ثروة ومنافع العالم كله بعضها ببعض ولجنوح كل انسان وكل فئة من الناس فطرة الى جعل نصيبهِ وافرًا منها. نشأ التزاحم بين كل فرد وقرينهِ وبين كل فئة واخرى. وربما أدى هذا التزاحم بالانسان الفرد الى مقاتلة الفرد الآخر. ولا يمنع هذا اختلاف شكل ووطنية كل عضو حيث انهُ قائم على ناموس الحاجة الفطريَّة. ويتحد افراد كل بقعة بحكم الناموس نفسهِ الى مكافحة افراد البقعة الاخرى. فان شذت هذه الاعضاء او الافراد عن هذا الناموس الطبيعي انفرط عقدها وفقدت قوتها وعجزت ليس عن المقاتلة فقط بل عن المحافظة على حياتها فتغتالها القوات المحاطة بها وتصبح في حكم العدم. هذه هي حقيقة ناموس الارتقاء تدل عليها حالة كل امة ويدل عليها بالاكثر انحطاط الشرق وتهيؤهُ الحالي لفقد الباقي من استقلالهِ ان كان هناك استقلال حقيقي باقٍ

الوطنية في عرف الشرقيين

وعلة شقائهم

ان انحطاط العلم في الشرق وفقدان قاعدة البحث في الحقائق جعل الاكثرين فيهِ لا يفهمون معنى الوطنيَّة كما هو . وجلهم ان لم اقل كلهم يعتقدون انها قائمة في جامعة الدين . نعم ان الدين يقوي تلك الروابط ويهذب اميالها ولكنهُ لا يحول دون هذه الجامعة ان ادرك كل فرد ماهيَّة دينهِ والغاية الجوهريَّة منهُ . انما الجهل قد ابعد هذه الحقائق عن اكثر الشرقيين فهم يعتقدون ان لا جامعة حقيقية غير جامعة الدين . فزال الاتحاد الوطني من نفوسهم وضعفت وحدتهم واخذت في الانفراط

عدم تنافر الدين والوطنية

الدين عبارة عن اعتقاد بتعاليم خصوصية لا تتعدى دائرة الضمير وهي قاصرة على علاقة الانسان بربهِ انما يسن اليهِ القواعد التي تتعلق بشؤونهِ مع غيرهِ في دائرة علاقاتهِ الادبيَّة لا في علاقاتهِ الاجتماعيَّة التي يعود امرها الى القوانين النظامية السياسية . فوحدة الدين هي فقط الارتياح الذي يشعر بهِ الانسان عند ما يرى آخر مشاركاً لهُ في رأيهِ ومذهبهِ . والمصلحة الدينية قائمة فقط فيما يجدهُ الانسان في شريكهِ في الاعتقاد من التعضيد في اقامة الشعائر الدينية التي ربما يعجز الفرد الواحد عن اقامتها بالاحتفال المألوف . فكل ذلك يزيد الاتحاد قوة وجمالاً ولكنهُ في الحقيقة خارج عن العلاقات الضروريَّة التي تحتاج الوطنية اليها

الحاصل الآن في مصر

نحن (اي السواد الاعظم) للآن لم ندرك الوطنية الصحيحة . ولم نشعر بوحدتها الحقيقية فالمسلمون يقولون لك ان لنا جامعة اسلامية مستقلة تمام الاستقلال عن كل فرد خارج عنها . ويعتبرون جميع مسلمي الارض داخلون فيها . والنفر القليل المهذب منهم يفهم ان للوطنية معنى آخر ودائرة نفوذ أُخرى انما لا يزال يشعر بعداءٍ طبيعي ممتزج بدمهِ لكل من هو غير مسلم وربما بدون ان يدرك لذلك علة ظاهرة اما الذين يدركون ويعملون على اعداد نفوسهم لائتلاف الوطنية كما هي فهم في حكم النادر وقد لا يشعر بوجودهم . وهم بدون شك ليس لهم تأثير على جموع كثيرة العدد والبعد عن العلم والتمدن الصحيح . وما يقال عن المسلمين يقال ايضاً على غيرهم من المسيحيين الوطنيين ولو ان ظواهرهم تدل على انهم اكثر رغبة واستعداداً الى احياء المبادئ الصحيحة وايجاد وحدة وطنية نحن اصبحنا اشد الامم احتياجاً لها في الوقت الحاضر . اذ من حسن طالع الغربيين ونتيجة انحطاط مدنيتنا وخلوّ جميع طبقات مدارسنا من مبادئ التربية الصحيحة ترانا الآن منقسمين الى قسمين رئيسيين قسم المسلمين وهو "حزب العرب وحزب الاتراك" وقسم النصارى وهو الاقباط الارثوذكس والكاثوليك والسوريين والارمن وغيرهم" . وكل قسم ان لم يكن مهتماً في اذلال غيرهِ فهو على الأقل عامل لمصلحة خاصة بدون ادنى ارتباط بالمصلحة العامة . وهم جميعاً يشتغلون ضد مصلحة انفسهم ولخدمة الاجانب الذين لا غاية لهم الاَّ ابتلاع البلاد وما فيها واماتة العواطف الوطنية للاجهاز على ما بقي او يبقى لأهالي البلاد . والغريب أنا جميعاً غافلون عما تؤول البلاد اليه من التأخر المستمرّ فيما يختص بالوطنيين والبعض منا يتوهم ان المعارف تتقدم يوماً عن يوم وأنا

بهذا التدرج انما نرتقي ارتقاءً متوالياً. ولو انا بحثنا الامر حقيقياً نرى ان سيرنا بجانب سير غيرنا يكاد لا يشعر به والمعارف الصحيحة اقل انتشاراً بيننا من قبل. والحقيقة انا كنا اكثر امتزاجاً واتحاداً من الآن. والسبب بعد المعارف الصحيحة عنا وكثرة الغرور المشاهد بيننا الآن

حقيقة مصلحة المصريين

لنفرض ان للمسلمين جامعة ووحدة مستقلة عن جامعة ووحدة المسيحيين فهل يمكن للبلاد ان تنهض من خضوعها وانحطاطها الحالي؟ ؟ وان تحصل على استقلالها بمثل هذا الانقسام؟ ؟ وهل يمكن ان يتوقع ان البلاد تخلو يوماً من الايام من احد هذين العنصرين؟ ؟ كل هذا يستحيل. فلا وطنية بدون اتحاد حقيقي ولا فلاح ولا استقلال بدون وطنيَّة. ولا أمل قط باختصاص البلاد بعنصر دون آخر. وحيث انهُ لا بد من اجتماع العنصرين في معيشة واحدة تحت سماءٍ واحدة واحكام واحدة مدى الدهر وما دامت حياتهم بجميع وجوهها اصبحت اكثر من كل زمن تتوقف على القوة والتضامن وهذه لا توجد الاَّ بالاتحاد وهذا لا يكون الاَّ بتربية النفوس على ان الدين لا ينافي العلاقات الوطنيَّة وهذا الامر طبعاً لا ينتظر من مدارس الحكومة حيث فكرة التعليم فيها تناقض المصلحة الوطنيَّة الحقيقيَّة فان رغب وود المخلصون لهذه البلاد ارتقائها الفعلي وتمهيد السبيل الى استقلالها فلا يكون ذلك الاَّ بفتح مدارس للبنات في جميع انحاء البلاد. وجعل المبدإ الاساسي فيها التربية الصحيحة بجميع انواعها. واكثار عدد المدارس الحاليَّة للاولاد وانشاء جامعة في العاصمة يستحضر لها اساتذة من بلاد لا غاية سياسيَّة لها في القطر.

والسبيل الى ذلك صعب لا مستحيل. انما نحن نترك البحث فيهِ الى غيرنا من اصحاب النظر السليم والله يتولى امورنا بالنجاح جميعاً

الاسراف

" او ميزانية الهدم في الامة "

" والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " (قرآن شريف) .

الاسراف صفة عامة في كل الطوائف التي تتألف منها الامة المصرية. ولكنهُ يختلف في كل طائفة عن الاخرى . فليس الاسراف في الطائفة الاسرائيليَّة مثلاً ولا في الشعب القبطي كما هو في الشعب الاسلامي. واسباب اختلافهِ حرص الاولين وتوفير الاقباط وبالعكس تبذير المسلمين . وما ذلك الاَّ لاحتياط الطائفتين الاسرائيليَّة والقبطيَّة لانفسهما في السير على ما يكون لها فيهِ قوامُ الثروة : فلذا دأبهما كنز المال ولو جارتا على انفسهما والفضل في ذلك ليس لهؤلاء الطوائف بل للمصائب التي انتابتهم من قديم الزمن وعلمتهم الادخار لوقت الحاجة فان للشعب الاسرائيلي الآن مركزًا ماليًّا عظيماً في مصر وليس بعدهُ في الدرجة الاَّ الشعب القبطي . اما الشعب الاسلامي فلا يكاد يذكر بينهما لانغماس المسلمين في الترف والابهة والعظمة والتهور في الملاهي والولائم. اذ قد ورثوا كل زينة باطلة وكل ما يفضي الى الاسراف والتبذير والخراب وهم لا يعلمون . ومن الغريب ان يحكم البلاد الآن غير اهلها ولا تشعر الطوائف المتألفة منها الامة المصريَّة بالتحوط لانفسهم في حفظ اموالهم لتربية ابنائهم بما ينفعهم في ايامهم المستقبلة المجهولة اذ ليس اقوى من المال على حفظ كيان الامة والجماعة . وما من امة استغرق افرادها في الاسراف والتبذير الاَّ

تلاشت وانحطت وضعفت واضمحلت مقاماً وكياناً . ومن الاسف ان الاهالي عموماً والمسلمين منهم خصوصاً ليس لهم في زمن حكومتهم العادلة وسائل لموارد الرزق لجهلهم كيف يستخدمون الوسائط فيما ينمي الثروة : والمتأمل يرى ان عمران القطر قد عاد بالفائدة المالية على جماعة الاجانب لعلمهم بطرق الاكتساب واغتنامهم الفرصة المناسبة في زمن العدل فاذا ترى الاجنبي يحل محل الوطني كل يوم في اكثر مواطن التكسب لشيوع العلم فيهم وشيوع الجهل فينا وعلة ذلك الاسراف المشين الذي بليت الامة باجمعها به والمسيحي لا يأمرهُ دينهُ بالاسراف والمسلم ايضاً كذلك فان المتأمل لحكم احكام الشريعة المطهرة يجد في كتب الفقه ما مؤداهُ انهُ لا يجوز لمتوضئ ان يسرف من الماء اكثر مما يلزم منهُ للوضوء ولو كان على شط نهر او ساحل بحر . فاذا لم يجز لمن يتوضأ لعبادة ربه ان يسرف من ماء البحر الذي هو اوفر الاشياء في الدنيا وارخصها ولا ينقص بوضوء المتوضئين سواء اكثروا منهُ او أقلوا . فكيف يجوز لعاقل تبذير المال الذي عليهِ مدار مصالح الامة في الدارين واغلى الاشياء واندرها بالنسبة للحاجيات العمومية . ولاسيما اذا انفق الانسان فيما لا ينفع وهو من المحتاجين اليه اشد الاحتياج وحالة العمران تستدعي الاعتماد على المال في قضاء الحاجات والواجب على كل انسان لهُ زوجة واولاد ان يستعد للموت العاجل اي ان يدخر لهم ما يقوم بحاجاتهم حتى اذا فاجأتهُ المنية قبل ان يصيروا في غنى عنهُ لا تبرح بهم المتربة ولا يكونون عالة على الناس . ولا يخفى ما في طوارئ المرض والعطلة والشيخوخة ايضاً من الحاجة الى المال . ومن احوج الناس الى ذلك مثل جماعة الوسط من الامة — فان مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً — ولقد انتبه الى ذلك وسط جميع الامم فانشأوا لذلك بنوك الاقتصاد ومن ثم كل يوم عددها بينهم في ازدياد . وما كل ما يشاهد من الهمم في الامم المرتقية عنا الاَّ من آثار

هذا العمل الباهر . وهو سرٌّ من اسرار ارتقائهم عنا[1] وحبذا لو حثت على الاقتصاد الجرائد بدلاً من سياسة "الطرابيش في الهند" او ذكر ما روتهُ جريدة "محمدان" او ذكر "نجاح وتقدم حزب تركيا الفتاة" "ومصائب المابين" فان الجرائد في تلك البلاد باذلة الجهد دائمًا في تربية ملكة الاقتصاد في الامة لأن بهِ قوام شعبها وحياتهِ . ولو فرطت الامة في الثروة وبعثرتها وبددتها فلا بد ان تصبح على شفا جرف السقوط والاضمحلال خصوصاً اذا كان التبذير والاسراف في مهمات خارجيةٍ وفي زوائد تقليديةٍ مثل استرسال جماعة الوسط الذي هو نتيجة عدم تعليم وايجاد ملكة الاقتصاد سيما وقد ساد على العقول المثل "اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب" ولبيان الابواب الهادمة لثروة الامة نقول آفات الاسراف كثيرة منها آفة الميسر تلك الآفة الحديثة العهد في ديارنا فوق ما فيها من الآفات الكثيرة التي تسممت منها الاجسام وصغرت بسببها العقول فأماتت العواطف وضيعت الاحساس وافنت المروءة والشهامة فان مع منع هذه الآفة رسمياً بقرار صادر من الحكومة[2] لا يزال لاعبوها المستترون كثيرين في بيوتهم ومجتمعاتهم الخصوصيةٍ وربما اشترك بعضهم مع مخدراتهم اشتراكهم معهنَّ في معاقرة بنت الحان

(١) اهم بنوك الاقتصاد في اغلب البلدان المتمدنة بنوك البوستة . ومما يسرنا ذكرهُ سعي سعادة الشهم الغيور يوسف باشا سابا مدير عموم البوستة في انشاء بنوك الاقتصاد في بعض مكاتب البوستة والمأمول ان يعم ذلك مكاتب البوستة كلها عن قريب فان من يعلم همة سعادتهِ في ايجاد شركة "الاقتصاد والتعاون" بين موظفي ومستخدمي البوستة ونجاحها الباهر يتأكد لديهِ مقدرة سعادتهِ على ذلك

(٢) القرار المذكور صادر من نظارة الداخلية في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩١ بعد تصديق محكمة الاستئناف المختلطة عليهِ . و يقال في المادة ١٧ منهُ ما نصهُ — لا يجوز لأصحاب ادارات المحلات العمومية ان يمكنوا احداً من اللعب بالعاب القمار على اختلاف انواعها مثل البكارا والانسكينة والواحد والثلاثين والار بعين والفرعون والزيرو وماكينة الخيول وما أشبه

وما سلطان القانون على النفس التي لم تتهذب وتتربَّ فيها ملكة الاقتصاد بمانع من اللعب بين المنازل والمصيبة ان آفة الميسر لم تحل بالمدن الكبيرة فقط بل ان القرى الحقيرة تئن منها وتشكو

ومن الآفات العظيمة ايضاً انصراف الامة الوسطى الى المسكر واندفاعها في الشرب وتعاطي الخمور حتى اصبح السكر زينة الفتيان والحانات اعز مقاعد الشبان والمصري بميلهِ الى الافراط في كل شيء سبق غيرهُ في ميدان الخمور فلم يبقِ مالاً ولا ترك صحة وجهلهُ لدينهِ وتقليدهُ للأجنبي فيما يضر ولا ينفع كلها اسباب مكنت فيهِ حب الميل الى الخمر والاَّ لو عرف ان الميسر والمسكر شيئان مخالفان لنصوص الدين والشرع واوامر الكتاب والسنة من اول تربيتهِ البيتيةُ والمدرسيةَّ . وعرف معنى المقصود بقولهِ تعالى

« يا ايها الذين آمنو انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوهُ لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون — الآية »

وتحقق لديهِ حكمة تحريمها والتناول منها ما اقدم على مخالفة امر الله الناهي بذلك عن وارثة دمار الامم الجالبة الفساد والخراب المقتلة للنفس الباعثة على فساد الصحة [1]

ومعاصرة الافرنج المبثوثين في اطراف البلاد شرقاً ومغرباً ساعد على انتشار

(١) يقول الاطباء ان الخمر تسبب ارتعاش الايدي بعد القدرة على تحريكها وتسبب عسر الهضم وفقدان الشهية . تلحق بالكبد الاذى . تضعف القريحة . تؤدي الى كثرة الهواجس . وازدياد هذيان المدمن عليها . تؤدي الى الانتحار ولا يزول ضررها بانقضاء حياة المدمن عليها بل يسري ضررها منهُ الى ذريتهِ فينشأ الاولاد بالامراض العصبية على تنوع اشكالها التي من اخصها داء الصرع ثم انهُ مما اجمع عليهِ الاطباء ان ولد السكير يكون ضئيلاً ضعيفاً وان عاش فقلَّ ان يلد وحينئذٍ فجناية الخمرة على العقل والجسم لا تضاهيها جناية مطلقاً وبهذا استحقت ان تسمى أم المعاصي

شرب الخمر بمالهم من طرق الخداع والحيل حتى اعتادت اغلب الفئة الوسطى من الامة على شرب "المستكى" ظهرًا "والبيرة عصرًا" "والكنياك" "مساءً" فتراهم جماعات في الحانات عاكفين على شربها لتمسكهم باهداب مخازي التمدن والحضارة الغربيَّة. ويا ليتهم في شربهم معتدلون ولا يصلون لحد العربدة والاسكار بحسوة الكأس اثر الكأس خمرة صرفًا حتى لا يتشاجرون ويتضاربون الى حد الاهانة والمحاكمة ولكن هي الخمر لا حكم لشاربها على نفسه اذ هي المتصرفة بالعقل انى شاءت من ضحك ورقص وقهقهة وزعيق. ولا يخفى اضرارها المادية في امة هي بحاجة الى الاقتصاد من مرض يطرأ ومصيبة تحل ومبلغ جهلها لا يوصف. ومن الآفات المسببة للاسراف قهاوي الرقص المشتمل على الحركات القبيحة التي يرتد عنها نظر الاديب حياءً وخجلاً

هذا ولا نطيل فيما بقي من الاسباب المؤدية للاسراف ما دامت كثيرة معلومة لدى القارئ

ولكننا نتقدم اليه باحصاء اخذناه من محافظة مصر — قلم تنفيذ اللوائح — عن بيان الخمامير وقهاوي الرقص والقهاوي العاديَّة التي للاجانب والوطنيين حتى يظهر لديه بأجلى بيان كثرة مسببات الاسراف في الامة

كان في القاهرة وحدها للوطنيين ١٦٦١ محلاً من خمامير وقهاوي قبل صدور اللائحة سنة ١٨٩١ وكان للاوربيين ٧٥٥ محلاً من خمامير وقهاوي رقص وبيرات سنة ١٨٩١ ايضاً اي قبل صدور اللائحة

ثم حدث من بعد صدور اللائحة المذكورة ٥٠٥٠ محلاً للوطنيين و ١٩٨٩ محلاً للاجانب وباضافة ما كان قبل صدور اللائحة الى ما حدث بعد صدورها يكون المجموع ٩٤٧٥ محلاً في القاهرة وحدها

فاذا تساهلنا وفرضنا ان كل خمارة او بيرة او قهوة من هذا العدد تبيع يومياً بنصف جنيه لا غير فانهم يبيعون في السنة بمليون وسبعمائة وثلاثين الف جنيه وكسور ثم لو فرضنا ان سائر محال الخمر والقهاوي في جميع القطر بمقدار ما في العاصمة فقط يكون مقدار ما يصرف في الخمر وعلى القهاوي والرقص وغيره يساوي مبلغ ثلاثة ملايين وأربعمائة وستين الف جنيه وكسور

كل هذا المبلغ الذي دونهُ دخل بعض الممالك الصغيرة في اوربا يذهب من ايدي الوطنيين اسرافاً وتبذيراً سنوياً في شرب الخمر وعلى التفرج على الرقص والقصف والخلاعة وعلى القعود في القهاوي

ثم لو زدنا على هذا ما ينفقهُ الشبان الجهلاء الذين يرثون من المال ما لا يحصى مقدارهُ ويبذرونهُ في اماكن المقامرة المستورة وغير ذلك لضوعف المبلغ اربع او خمس مرات

فاي مصري عاقل لا يتفطر قلبهُ اسى واسفاً على أُمة هذا مبلغ حالتها في التبذير واي انسان لا يتحسر على مالٍ ينفق بلا نفع أدبي يعود على البلاد وتربية ابنائها وكيف يؤمل حفظ كيان أُمة بغير الثروة وهي حياة الممالك. او يؤمل لها مستقبل حسن. وغاية شبانها وكهولها التبذير والاسراف الذي يزيد البلاد تعاسة وتأخراً

" فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسرهُ لليسرى " صدق الله العظيم

الغناء والحماسة

الغناء صدى النفس الصادر من اعماق القلب بعد احتكاكهِ بالعواطف والحاسيات. وهو الشاهد العدل على الاميال الغريزية في الانسان. والواسطة لتجرد الانسان عن الاشياء الحسية وتعلقهِ باهداب العقليات والتوسع في الافكار

والخيالات لانماء الشعور واحياء العواطف وكان العرب في الجاهليةَ ينشدون الاغاني الدائرة على الالسنة في ذلك الزمان في حلاتهم وكانت كل قبيلة تفاخر الاخرى بمقدار ما في قولها من الحماسة . حتى ان الفتيات اللواتي كنَّ مخصصات برعي النوق والابل كنَّ يغنينَ ويحدينَ لها على الطريق بغية ان لا يستحوذ الملل على النوق والابل وحتى قد اشتهر عندهم اذا ارادوا ان تسرع الابل والجمال في السير غنوا لها وحدَوْا فتسرعَ جدًّا ولا يزال بعض ذلك فيهم كما قد انصل منهم الى بعض جهات في اوربا [1] وبقيت هذه العادة ونمت وتحسنت مع الزمن وتداولت على الالسن واختلف نغمها باختلاف القبائل لان كل قبيلة كانت تظهر امياها واحساساتها ان كان فخرًا او حماسة او حبًّا في الغزو او اكرام الضيف

لا مرحبًا بالليل ان لم يأتني ... في طيهِ ضيف عزيز نازلُ
والصبح لا سهلاً بهِ اذا أتى ... ان كان عندي فيهِ ضيف راحلُ

او اسداء المعروف وغير ذلك من صفات العرب الطيبة. فكان السامع يحكم لاول وهلة ان القبيلة التابع لها هذا المنشد موصوفة ومشهورة بالصفة التي يترنح بها في الانشاد والغالب على الظن ان الاغاني كانت عندهم دليلاً على الفخر والترفع عن الدنايا وهذا مخالف لما نراهُ الآن . وبعد ان بزغ النور الاسلامي وتقشعت دياجير الكفر والجهالة واختلطت الامم الاسلاميةُ بعضها ببعض وتفرقت لفتح الممالك وكسح البلدان ومازجت العناصر الغريبةَ طبقًا لقانون الترقي في الطبيعة . انتقلت الاغاني من دور كان حماتها رعيان النوق والابل الى دور كانت حماتها فيهِ من الخلفاء والسلاطين .

(١) مما يذكر عن اختبارات اهل سويسرا ان البقر عندهم يتأثر من الصوت الحسن الى حد ان ادرارهُ للبن يزداد على الغناء . وخصوصًا اذا كانت الفتاة التي تحلب اللبن تغني في وقت الحلب غناء شجيًا فان اللبن يزيد الى مقدار الخمس

ولاسيما الاندلسيين الذين اشتهرت في ايامهم الاغاني وموشحاتهم لا تزال خير شاهد على سبقهم في هذا المضمار [1] ومثل هذا يقال عن المصريين والمتأمل في اغاني تلك الايام يقدران يحكم في الحالة التي كانت عليها الامم الاسلامية في ذلك الزمن السالف فالحكيم يقول -- من ثمارهم تعرفونهم — وهذه الموشحات التي كان يغنيها الاسلام تنطوي على احساسات رقيقة تأبى الذل والهوان . عدا انها كانت صادرة عن افكار ثاقبة وقلوب امتلأت حكمة وكمالاً وتدل دلالة واضحة على ما وصلت اليهِ الامة من المجد والسؤدد . فلما تطرق الفساد الى الامة والى محترفي صناعة الغناء لانغماسهم في المسكر الذي لا يبقي على العقل والادراك . انتقلت بذلك الاغاني الى دور الانحطاط لاسيما وقد افسد الافرنج بها ذوقنا وسهلوا علينا طرق المفاسد لمآرب يرمون اليها فأخذت الاغاني في التأخر والسقوط الى ان وصلنا الى عصرنا الحاضر الذي اصبح المغنيّ فيهِ متزوجاً بنائحة ليأخذ كلٌّ منهما بقسم من الحزن والفرح حتّى اذا كان هناك فرح دعوهُ وان كان حزن دعوها . ولا ينكر ان المصريين يميلون الى الغناء والطرب وقد كاد الطرب يعم جميع افراد الامة وجميع طبقاتها واصبح المرء يرى الرائح والغادي ذاهباً الى مكان المغني . فالغني عاكف على سماعهِ بما في وسعهِ . اما في بيتهِ او في بيوت صحبهِ والوسط كذلك يسعى ما استطاع لسماعها والفقير والبياع المتنقل الذي يطوف في الشوارع والحواري ينادون بنغم حتى الفعلة وهم تحت الاثقال لا يحلو لهم العمل ولا يخفف اثقالهم شيءٌ مثل التلحين والانشاد

والمغنى ليس بمنكر ولا مكروه اذ قد ورد عن النبي " صلى الله عليهِ وسلم " انهُ سمع نسوة يغنين في وليمة عرس فلم ينكر ذلك عليهنَّ

(١) ترى بعض موشحاتهم في مقدمة ابن خلدون

وجاء ايضاً ان نساءً من الانصار استقبلنهُ عند قدومهِ من احدى الغزوات بالدفوف والمزاهر وهنَّ يغنينَ على الايقاع بقولهنَّ

طلع البدر علينا من ثنايات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ولم ينكر ذلك عليهنَّ "صلى الله عليهِ وسلم". وفي سير الخلفاء حكايات كثيرة عن حضورهم مجالسهُ. وقيل ان عمر بن الخطاب "رضي الله عنهُ" سمع الغناء فما انكرهُ مع ورعهِ وتقشفهِ وصلابتهِ في الدين. وحتى انهُ مرَّ في بعض الايام على ابي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنهُ في بيتهِ فوجدهُ يتغنى فقال لهُ ما هذا يا ابا عبيدة فقال افعلُ ما يفعلهُ الرجل في بيتهِ ثم انشد

ولله مني جانب لا اضيعهُ وللهو مني والخلاعة جانبُ

ويقولون ايضاً في كتب السير ان عبد الله بن جعفر رضي الله عنهُ كان يجلس للسماع. وللغناء عمل كبير في تلطيف الوجدان وترقيق الشعور مما لا ينكرهُ ذو احساس وما من امة مرتقية او منحطة او همجيَّة الاَّ ولها نصيب منهُ على حسب استعدادها وارتياحها. والغناء انتعاش للنفس وارتياح للجسم لو كانت في حماسة فيها دلالة على شبه شيءٍ في نفس السامع فان تأثير ذلك كالغذاء لها من بعد طول شقائها وبمدها عنهُ. ولذلك تستعمل الاغاني في الافراح والحروب وتعالج المرضى بها وتستعمل في المآتم وبيوت العبادات ولا توجد امة اميل اليها من امم المشرق اذ تاريخ الغناء فيهم اقدم وهم فيهِ اعرق واكثر ارتياحاً يستحثون بها البطل في حومة الوغى ليدافع عن وطنهِ وامتهِ كما يسكتون بها الطفل عند بكائهِ وعند صراخهِ فيسكن لها ويرتاح الى سماعها وشاهد ذلك ظاهر فيما لو تأمل القارئ في طفل تسكتهُ امهُ بأُنشودة

غير ان حاضر الغناء عندنا مذهب بالشهامة مقعد للحماسة مضيع للمروءة مفسد

للاخلاق يربي في النفس السكون والاستسلام والضعة عدا حثها على مخالفة الآداب وحث المرء على حسو الخمرة ومداعبة النساء وهذا الجاري في اغاني عهدنا الحاضر وكما هو بين الرجال كذلك بين النساء فان اغانيهنَّ في الافراح مما يسوء ذكرهُ لانهُ دلالة فيهنَّ على بعدهنَّ عن الكمالات وتورّطهنَّ في قلة الادب الى حد السفاهة او دون[1] هذا والخلاصة ان الاغاني عندنا معشر ابناء العرب قد انحطت كثيراً عن الغرض المقصود بها حتى علتها اغاني " البرابرة " لما فيها من بعض الحماس والترفع عن الدنايا ويظهر ذلك من قولهم

الدجينات الهمصه لا بد شيبن والنجيمات اللجلجن لا بد غيبن
والبنات من غير رجال لا بد عيبن والخيل من غير فرسان لا بد غيبن

ولقد قابلت مرة شاعر الشبيبة المصريَّة حضرة احمد بك شوقي وشكوت لهُ سوء حال الاغاني العربيَّة ورجوتهُ ان يضع بعض ادوار لتكون سبباً لايجاد روح الحماسة في الامة فوعدني خيراً فعسى ان يكون ذلك قريباً ليذهب عن الناس تنفس الصعداء وقت سرورهم وافراحهم والاَّ فلله في خلقهِ شؤون

(١) واليك بعض ما يقولون في الافراح

ان كنت خائف من أُمي أُميّ عليَّ ستورا
وان كنت خائف من ابويا ابويا عدًّا المنصوره
وان كنت خائف من اختي اختي عايقة ومشهورا
وان كنت خائف من جوزي جوزي بياكل طاطورا
وان كنت تايه عن بتنا بتنا قدامه دحضورا

حاجة الشبان

بين الوسط من الامة شبان كثيرون من المتعلمين المهذبين . محتاجون الى مجتمعات لا تحط بقدرهم ولا تمس كرامتهم ولا تطفئ جذوة النشاط والهمة من نفوسهم محتاجون الى ترويض الابدان بوسائط الرياضة الصحيَّة من مثل استنشاق الهواء النقي في الاماكن البعيدة عن السكنى ذلك لانهم كما ذكرنا متعلمون مهذبون عارفون ان ذلك سبب ارتقاء ونجاح الشعوب الاوربيَّة ولا سيما الشعب الانكليزي الذي اعتمد على تقوية عضلاتهِ وترويض جسمهِ واعضائهِ فنجح هذا النجاح المشاهد . وما وُجد فيهم ذلك الاَّ لأَنهم تعودوا لعب " الجمنستيك " في المدارس وشبوا وهم عارفون منفعتهُ فيصعب عليهم والحالة هذه ان يتركوا اللعب بهِ حال اتمامهم لدروسهم وزادت فيهم الحاجة الى ما ذكر لانهم يعلمون ان الصحة والقوة لازمتان للجالس في مكتبتهِ اكثر من العامل في حرفتهِ . محتاجون الى ما نقدم حتى لا يفقدوا الصحة بعدم انتظام المعدة التي شكا منها كثيرون

واكثر شعور الشبان بحاجاتهم وقت فراغهم من العمل فانهم يشعرون بالحاجة الكبيرة الى اماكن تأْويهم ومن على شاكلتهم والى ما يشرح الصدر منهم ويمنع عنهم الاندفاع مع تيار الشرور ما دامت كل المحال لا يقبل الشاب المؤَدب ان يوجد فيها لسوء سمعتها وما دامت العائلات قد نسبت ذلك الاجتماع الذي كان معروفًا بينها قبلاً . وهو اجتماعهم عند بعضهم مرة في بيت هذا وأُخرى في بيت ذاك ليقضوا اوقات فراغهم بين مباحثات واحاديث مفيدة . نعم كان ذلك والآن لا يوجد الاَّ لجماعة الافرنج وبعض اذكياء جماعة السوريين

ولقد صدق الاديب حافظ افندي عوض في مقالة لهُ في المؤَيد الاغر عدد

٣١١٩ حيث قال — واقول ولا اخشى لومة لائم انهُ اذا لم توجد أندية ومجتمعات عائليَّة فيها يقضي الناشئون اوقاتهم فالتربية ضائعة والكلام في التربية لا يجدي نفعاً وتذهب اقوال المعلمين والمربين هباءً منثوراً ولا ادب يفيد ولا اديب — ونحن نزيد على قولهِ ان الشبان في حاجة عظيمة الى مداومة الرياضة البدنيَّة واستنشاق النسيم النقي وخليق بهم الذهاب والتردد على ما يكسبهم صحة على صحة ونشاطاً على نشاط وخليق بهم ان يتحدوا معاً حقيقة فيؤلفوا ناديًا [1] توضع فيهِ بعض الجرائد اليومية والمجلات الشهريَّة والاسبوعية سواءٌ كانت عربية او افرنجيَّة بدلاً من الجلوس في القهاوي التي تقدم الكلام عنها فانهُ لا شبان اكثر تشتيتاً وتفريقاً من الشبان المصريين ولاسيما المسلمين منهم [2] وكثيرًا ما يحتاج احدهم الى آخر فيفتش عنهُ في القهاوي كلها حتى يعثر عليهِ . والشبان مفطورون على تمكين علائقهم ومحبتهم مع بعضهم فاذا أُنشئت لهم الاندية تخلصوا من جلبة الجالسين على المقاعد في القهاوي والهواء المنبعث من دخان " النراجيل " وليس في العاصمة مكان اجدر بهذا المشروع من حديقة الازبكيَّة حيث يخطر بليل الهواء فيها ويسبح الاوز على صفحات الماء . وحيث تتمايل الاغصان تمايل قدود الحسان حتى اذ اشتد النسيم في خطراتهِ حنت رؤوسها اجلالاً وعانق بعضها بعضاً تحبباً وامتثالاً فيسمع لها حفيف يزيل الهموم ويجلي عن القلوب صدا الغموم والاَّ أليس بعار ان تصبح اندية

(١) انشأ الشبان المصريون لهم جملة اندية ولكنها لم تدم. وقد جمع بعضهم اكتتاباً اخيرًا بواسطة البنك العثماني ولكنا لا ندري ماذا تم اذ قد مرَّ على هذا الاكتتاب اكثر من سنتين ونصف ولم نسمع عنهُ شيئاً

(٢) بنشأ التفريق بين الشبان و بعضهم من وقت طلبهم العلوم في المدارس. اذ تلامذة الحقوق بمعزل تام عن تلامذة الطب وهؤلاء لا يدرون من امر اخوانهم بالمهندسخانة شيئاً ولهذ السبب بُعد عنهم التآلف والاتحاد و بعدت عنهم المحبة

مصر للاوربيين من انكليز وفرنساويين والمانيين ونمساويين وايطاليين [1]

وليس للشرقيين شيءٌ الاَّ نادٍ واحد انشأَهُ جماعة من افاضل السوريين سموهُ " بالنادي الشرقي " وسنوا لهُ قانوناً ورد في المادة الاولى منهُ

" ان الغاية من تأسيس هذا النادي اجتماع ادباء الشرقيين لقضاء الوقت في ما يلذ و يفيد "

" وفي المادة الثالثة "

" ان المشاحنات السياسية والدينية ممنوعة على الاطلاق

فجاء ذلك وافياً لهم بحاجة نحن احوج منهم اليها . نعم ان الشبان احوج الى ذلك كما هم في اشد الحاجة الى انشاء المكاتب للمطالعة اذ المستقصي دور المطالعة في القطر يجد عددها لا يتجاوز اصابع اليد وهي " الكتبخانة الخديويةً " بمصر وكتبخانة المجلس البلدي في الاسكندريَّة ومكاتب المرسلين الاميريكان و بسبب فقدان ما ذكر من العواصم لم تنم التربية الصحيحة بين الشبان في العواصم واصبحت صحيحة في الارياف عليلة في البنادر والمدن لكثرة ما يوجد في الاخيرة من دواعي الترف والخلاعة

يتبين لك صدق ذلك لو تأملت اولاد الارياف فانك تراهم اوفى كمالاً من اولاد المدن الذين هم اوفى رذيلة فلذا يشب الاولون وقد مارسوا غرس الاشجار وزرع البقول وتربية الحيوانات . والآخرون يشبون على غرس البغضاء في النفوس وزرع الشحناء في الصدور وتربية النميمة والمواربة والخداع وسوء الاخلاق . هذا ومن اهم حاجة الشبان التي لا تخفى على من درس حالة البلاد ان المتعلمين منهم قد ابتعدوا عن الزواج لما علموا ان من يقترنَّ بهم بعيدات الافكار

(١) اول من ابتدأ بعمل الاندية (الكلوب) الانكليز في اوائل القرن الخامس عشر والكلوب لفظة انكليزية مأخوذة من مادة يراد بها الاجتماع كاجتماع الانجم والاشجار في غيضة او روضة مثلاً

عنهم وان كنَّ متحدات الاجسام وقلة الزواج في الامم دليل على انحطاطها والتاريخ وحاضر جمهوريَّة فرنسا اصدق شاهد. هذا وحاجات الشبان المتعلمين لاختيار زواج المتعلمات من البنات تنمو يوماً عن يوم[1] فهلا أدرك اهل البنات ذلك وبدأوا يشعرون بضرورة تعليمهنَّ وفقاً لما اشار بهِ العقلاء اذ من الصعب جداً ان يرتقي فريق في الامة ونصف اعضائها غير مرتقٍ او كيف يهنأ عيش احد الفريقين ما لم يكونا على اتحاد تام في الاميال والاخلاق وعلم التربية اعظم شاهد والواقع اقوى برهان على ما نقول

نسأل الله ان يصلح في هذه الهدنة امر هذه الامة ولا تأخذ باكظامها انهُ السميع المجيب

(١) اقترح احدهم مرة في مجلة "السمير الصغير" على الشبان ان لا يتزوجوا الاَّ بكل متعلمة فصادف اقتراحهُ هذا استحساناً عاماً ممن قرأهُ من الشبان